

أخبار مجموعة

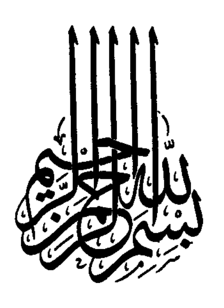
في

فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله
والحروب الواقعة بها بينهم

تحقيق: ابراهيم الابياري

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت



دار الكتاب المصرى
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج. م. ع.
ت ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١
ص. ب: ١٥٦ - الرمز البريدى ١١٥١١ برقياً كتا مصر
TELEX No. 23081-23381-22181
ATT MR. HASSAN EL-ZEIN
FAX: 3924657 فاكسميلي: ٣٩٢٤٦٥٧

دار الكتاب اللبنانى
شارع مدام كورى - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦٠٧٩٢ / ٨٦١٥٦٣
ص. ب: ١١/٨٣٣٠
TELEX: DKL 23715 LE
ATT: MAY. H. EL-ZEIN
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية: ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م.

الإهـــداء

" إلى زوجتي المخلصة

ممدوحة عبد الرحمن

التي آزرتْ فأجملتْ ، وأعانتْ فأحسنتْ

وما كان أحوجني في إخراج

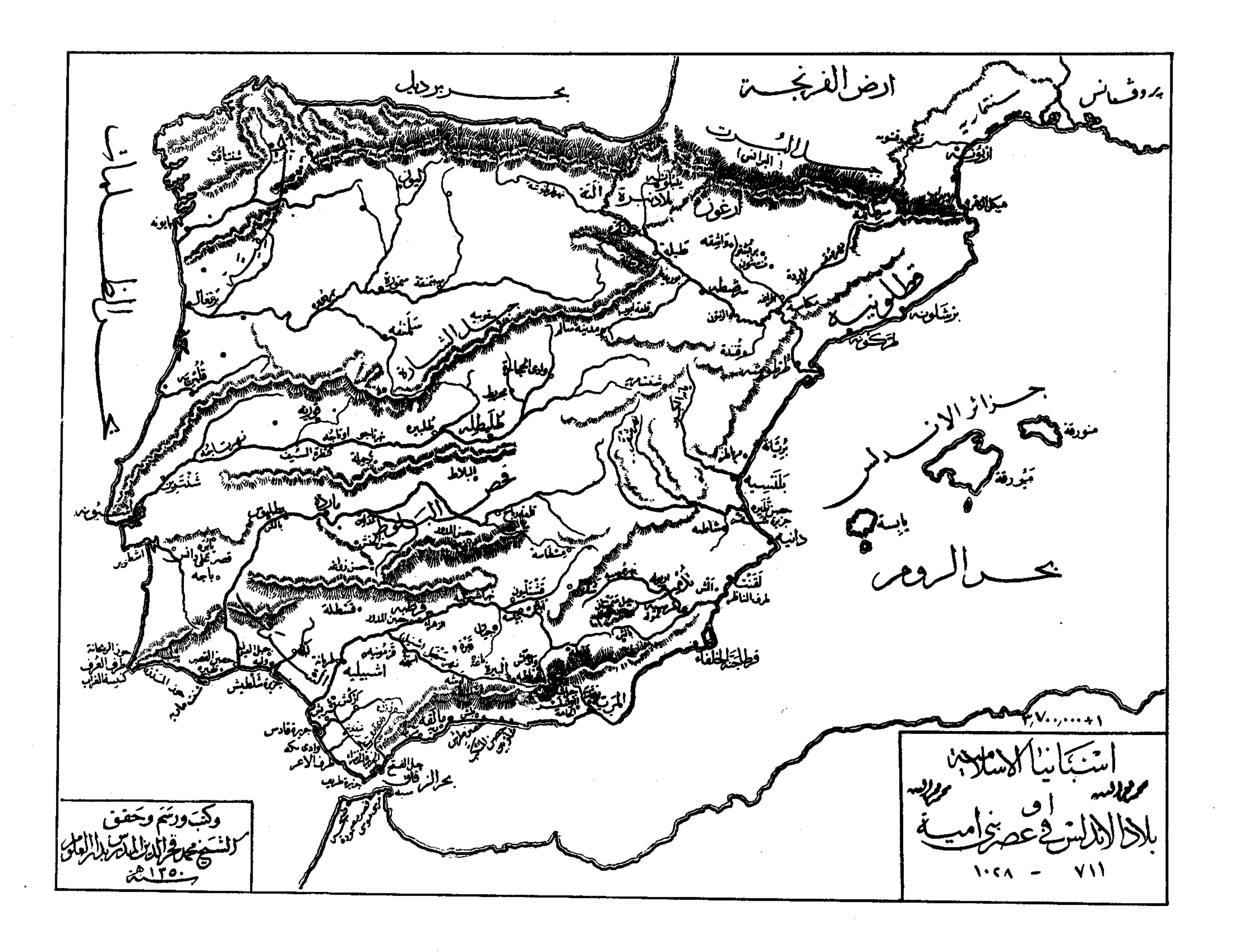
هذه المكتبة الأندلسية إلى من

يشد أزري ويعينني على أمري

لذا كنتِ أحقَّ من تُهْدَى إليه "

زوجك المخلص

ابراهيم الأبياري


اسبانيا الاسلامية
او
بلاد الاندلس في عصر بني امية
٧١١ - ١٠٢٨
وكتب ورسم وحقق
الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
سنة ١٣٥٠ هـ
بحر بورديل
ارض الفرنجة
بروفانس
سبتمانية
جزائر الاندلس
منورقة
ميورقة
يابسة
بحر الروم
بحر الظلمات
بحر الزقاق
طليطلة
بلنسية
دانية
اشبيلية
قرطبة
مارده
المرية

تَقْـــدِيم

هذا هو الكتاب الأَول من المكتبة الأَندلسية التى أخذت فى إعدادها لأُطالع بها قراءَ العربية فى طبعة جديدة محققة .

ولقد عرف قراءُ العربية هذا الاسم «المكتبة الأَندلسية» ينتظم كتباً ليس من بينها هذا الكتاب «أَخبار مجموعة» ولا «تاريخ افتتاح الأَندلس» الذى سأُثنّى به .

فلقد رأيت أن هذه الكتب التى درج الناس على تسميتها بالمكتبة الأَندلسية ينقصها هذان التمهيدان ، هذا الكتاب «أَخبار مجموعة» ثم «تاريخ افتتاح الأَندلس» لابن القوطية ، إلى غيرهما من كتب أُخرى تتصل برجال الأَندلس سأضمها فى مكانها من هذه المجموعة .

وهذا الكتاب وذاك وإن كانا ليسا من نمط ما تعورف على تسميته بالمكتبة الأَندلسية غير أنهما كالمدخل لهذه الكتب ، فهما يمهدان بالتاريخ للأَندلس كيف انتهى بها الأَمر لأَن تصبح مهدًا لهؤلاءِ الرجال الذين ضمتهم كتب المكتبة الأَندلسية .

وقد يقول قائل إن ثمة كتبًا أُخرى قد تكون من هذه البابة ، مثل : البيان المغرب لابن عذارى ، ولكن هذه الكتب قد يكون منها ماجنح إلى التاريخ المفصل ، وقد يكون منها ماجنح إلى المزج فضم إلى ما للأَندلس غيره مما هو للمغرب .

وكان هذان الكتابان «أَخبار مجموعة» و«تاريخ افتتاح الأَندلس» ليس فيهما هذا التفصيل، كما ليس فيهما هذا المزج ، وكانا ــ كما قلت

قبل – تمهيدًا للدخول إلى التعريف بهذه الأرض التى مهدها هذا الفتح – أعنى فتح العرب للأندلس – لتنشئة هؤلاء الرجال .

* * *

ولقد كان من هذا الكتاب «أخبار مجموعة» نسخة خطية فريدة بالمكتبة الأهلية بمدريد من القطع الصغير ضمن مجموعة أخرى من مخطوطات ، وتقع ورقاتها من هذه المجموعة من الورقة إحدى وخمسين (٥١) إلى الورقة سبع عشرة ومائة (١١٧) .

ولقد أنس بها المستشرق الأسبانى إميليو لافونته ، وكان أنسه بها لما ضمت من أخبار عن هذه الحقبة التى لاتزال موضع القيل والقال بين المؤرخين ، والتى لاتزال عناية الدارسين لها موصولة ، وحاجتهم إلى مزيد منها لاتنقطع .

وعلى الرغم من أن هذه الخطية كانت لاتحمل اسمًا لجامعها يضفى عليها قيمتها ، إلا أن مابها من أخبار كان كفيلا بأن يلفت هذا المستشرق الجليل إلى نفعها ، وهو من هو علمًا بتاريخ بلاده الأندلس .

وهذه الخطية كما يملى عنوانها ، تحوى :

١ – أخبارا قد جمعت .

٢ – وأن هذه الأخبار تبدأ بفتح الأندلس .

٣ – ثم تثنى بذكر أمرائها من العرب .

٤ – ثم تمضى فى ذلك إلى أن تنتهى إلى أخبار الأمير عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله المتوفى سنة خمسين وثلثمائة من الهجرة (٣٥٠ هـ) .

والجامع لهذا الكتاب حين جمع لم يشر فى موضع من المواضع إلى من نقل عنه من المؤلفين ، أو إلى ماأخذ منه من الكتب ، بل اجتزأ فى القليل من أماكن من الكتاب بقوله «قال» .

وهو فى هذا الانتهاء الذى انتهى إليه فى كتابه هذا «أخبار مجموعة» يتفق هو ونفر غيره ، منهم :

١ ـ ابن عبد ربه أبو عمر أحمد بن محمد المتوفى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة (٣٢٨ هـ) فى كتابه العقد الفريد ، فلقد انتهى ابن عبد ربه فى كتابه العقد ، وهو يؤرخ لخلفاء بنى أمية بالأندلس ، إلى مثل ما انتهى إليه صاحب «أخبار مجموعة» .

٢ ـ وابن القوطية ، فى كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس» ، وكانت وفاة ابن القوطية أبى بكر محمد بن عمر سنة سبع وستين وثلثمائة (٣٦٧ هـ) .

٣ ـ وابن عذارى المراكشى فى كتابه «البيان المغرب» ، ولقد كان ابن عذارى المراكشى حيًّا إلى سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة (٣٣١ هـ) .

وإنا لنجد النصوص التى شارك فيها صاحب هذا الكتاب «أخبار مجموعة» تختلف فى الكثير عما هو نظير لها فى هذه الكتب الثلاثة ·

١ ـ تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية .

٢ ـ والبيان المغرب لابن عذارى .

٣ ـ والعقد الفريد لابن عبد ربه .

وهذا يكاد يعنى أن صاحب «أخبار مجموعة» لم يعتمد على كتاب من هذه الكتب ، اللهم إلا إذا كان النقل لم يستو .

وأكاد أستنبط من هذا أن الجامع لهذا الكتاب «أخبار مجموعة» كانت له معاصرة أو شبه معاصرة ، أعنى أنه كان معاصرًا أو شبه معاصر لهؤلاءِ المؤلفين الثلاثة ، وأنه كان له المنبع الخاص الذى استقى منه ، كما كانت لهؤلاءِ منابعهم الخاصة التى استقوا منها ، وأنه كان ثمة نقل بالمشافهة تدلنا عليه كلمة «قال» التى أوردها فى مواطن قليلة من كتابه ، وتدلنا عليها أيضًا تلك الأخطاءُ السمعية فى الإملاء ، التى أشرنا إليها فى مواضعها من هذا الكتاب .

ولكن لمَ أَخْفى هذا الجامع اسمه ولم يذكره ؟

يبعد أن يقول قائل : إنه مات دون أن يتمه ، فآخر الكتاب ينفى هذا ، إذ نقرأ له يقول :

«تم ماجمع فى هذا التأْليف من أخبار فتح الأندلس وأُمرائها ، والحمد لله حق حمده ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه وعبده» .

وما نظن أن الواضع لهذا الكتاب عدل عن ذكر اسمه ، لأن العمل لم يَعْدُ أن يكون جمعًا .

وهذا بعيد أيضًا ، فالجمع ليس دون التأْليف شأْنا .

لهذا وذاك كان الذى أذهبُ إليه أن الأوراق التى بقيت من هذا الكتاب ضاع منها مايحمل اسم المؤلف ، إما طمسًا وإما محوًا ، فلم يستطع من نقل هذه الخطية عن خطيتها الأُولى ، التى كان بها هذا الطمس

وهذا المحو ، أن يقرأ اسم المؤلف ، ومن هنا كانت نسبة هذا الكتاب « أخبار مجموعة » إلى مؤلف مجهول .

والنسخة الخطية التى تحتفظ بها المكتبة الأهلية بمدريد من هذا الكتاب ، والتى اعتمد عليها المستشرق الأسبانى إميليو لافونته فى إخراجه لهذا الكتاب فى طبعته الأولى سنة سبع وستين وثمانمائة وألف (١٨٦٧ م) تحمل تاريخ نسخها ، وهو القرن الحادى عشر الميلادى ، وهذا يعنى أنها قديمة العهد بالنسخ ، وأنها كانت قريبة من عهد الجامع .

والذى يدلنا على أن هذه النسخة نسخت من أخرى ماها من بياض لم يستطع الناسخ قراءته .

فالنسخة الأولى لاشك كانت بخط المؤلف ، وإذا صح هذا فبعيد أن تحمل مثل هذا البياض الذى جاراه الناسخ ولم يملك معه إلا أن يجارى ، اللهم إلا إذا كانت النسخة الأولى هى الأخرى إملاء ، وهذا مانستبعده شيئًا .

وهذه تؤكد لنا ماذهبنا إليه من أن النسخة الأولى أصابها طمس وأصابها محو .

ثم إن هذا يؤكد أيضًا ماذهبنا إليه قبل من أن الجامع كان معاصرًا لهؤلاء المؤلفين الثلاثة : ابن عذارى ، وابن القوطية ، وابن عبد ربه .

وتكاد عبارة هذا الجامع لهذا الكتاب « أخبار مجموعة » تملى أنه لم ينقل عن كتب ، وأنه أخذ مشافهة فى الكثير وصاغ ما سمع بعبارته هو ، يدلنا على هذا :

١ ــ جريان العبارات على نمط واحد .

٢ – ولو أنها كانت من مظان مختلفة لاختلفت عباراتها .

٣ – وأن الجامع لهذا الكتاب لم يكن على مستوى لغوى رفيع .

٤ – بدليل تلك الاستعمالات اللغوية الخاطئة والتى أشرنا إليها فى مواضعها من هذا الكتاب .

٥ – وأنه لم يكن على مستوى نحوى قوى .

٦ – بدليل تلك الأخطاء النحوية التى أشرنا إليها فى أماكنها من هذا الكتاب .

٧ – وأنه لم يكن على مستوى إملائىٌّ متين .

٨ – بدليل تلك الأخطاء الإملائية التى أشرنا إليها فى أماكنها فى هذا الكتاب .

٩ – وأنه لم يكن على مستوى عروضى سليم .

١٠ – بدليل ماساق من أبيات لاتستقيم وزنًا .

١١ – غير أنه إلى هذا كله كانت له استخدامات لألفاظ لغوية تدل على تمكن من اللغة .

وبعد . فما كان أحوجنا على أية حال لأن نعرف اسم هذا الجامع ، فمعرفة اسمه تضيف شيئًا إلى علمنا عن الرجال .

ثم ماكان أحوجنا إلى أن نرى هذا الجامع قد أشار إلى من نقل عنهم من رجال ، وإلى ما أخذ منه من كُتب .

ولقد كان هذا وذاك ، لو وقعا ، يضيفان إلى علمنا شيئًا عن المكتبة العربية رجالا وكتبًا .

ولقد ذهب بروكلمان إلى أن مصنف هذا الكتاب كان فقيها من

الأُسرة الأُموية بقرطبة(١) .

وبعد . فهذا هو الكتاب الأَول من المكتبة الأَندلسية فى وضعها الجديد ، سيتلوه إن شاءَ الله غيره على الترتيب ، وسوف يكون لكل كتاب فهارسه الخاصة بالتراجم الواردة فيه وغيرها ، ليسهل على القارئ الانتفاع بما بين يديه أَولا فأَولا ، على أَن يضم هذه الفهارس كلها فهرس جامع لما فى هذه الفهارس كلها من تراجم ، ثم لما تضمنته هذه الكتب من مواد فهرسية أُخرى ، ليكون المرجع العام بعد هذه المراجع الخاصة .

هذا عدا الكتابين الأَول والثانى فسوف يكون لكل منهما فهارس عامة ، على أَلا تندرج بعد فى الفهرس العام .

ولا يسعنى هنا قبل أَن أَمضى فى عرض مساق كتب هذه المكتبة الأَندلسية فى طبعتها الجديدة إلا أَن أنوّه بما كان للمستشرق الأَسبانى إميليو لافونته من جهد فى توجيه النص ما أَمكنه جهده فى ذلك ، ولقد أَفدت حقًّا من هذا الجهد ومن ترجمته الأَسبانية للنص التى جلت بعض الغموض عن بعض العبارات ، ولقد أَشرت إلى هذا فى أَماكنه من تعليقات ، غير أَنى إلى هذا قد عقبت على كثير مما فاته ، وشرحت مايستحق الشرح ، وأَشرت إلى ما بالنص من أَخطاء لغوية أَو نحوية أَو إملائية أَو عروضية ، التى أَرجو أَن يكون الكتاب بها قد جاءَ محققًا للغاية من إخراجه فى طبعته الجديدة .

وسوف يكون مساق هذه المكتبة الأَندلسية فى وضعها الجديد على النحو الآتى :

١ ـ أَخبار مجموعة .

---

(١) تاريخ الأدب العربى (٣ : ٨٨ ، ترجمة د . النجار) .

٢ ـ تاريخ افتتاح الأندلس ، لابن القوطية (٣٦٧ هـ) .

٣ ـ تاريخ علماء الأندلس ، لابن الفرضى (٤٠٣ هـ) .

٤ ـ جذوة المقتبس فى تاريخ علماء الأندلس، للحميدى (٤٨٨ هـ) .

٥ ـ فهرس ما رواه عن شيوخه أبو بكر محمد بن خير (٥٧٥ هـ) .

٦ ـ الصلة فى تاريخ علماء الأندلس ، لابن بشكوال (٥٧٨ هـ) .

٧ ـ بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس ، للضبى (٥٩٩ هـ) .

٨ ـ التكملة لكتاب الصلة ، لابن الأبار (٦٥٩ هـ) .

٩ ـ المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى ، لابن الأبار (٦٥٩ هـ) .

١٠ ـ الذيل والتكملة ، لابن عبد الملك المراكشى (٦٦٩هـ) .

١١ ـ صلة الصلة ، لابن الزبير (٧٠٨هـ) .

١٢ ـ تاريخ قضاة الأندلس ، للنباهى (٧٩٢هـ) .

١٣ ـ فهرس عام لما فى هذه الكتب جميعًا .

ومن هذا العرض يتضح لنا أن المكتبة الأندلسية :

١ ـ ستضم جديدًا من كتب ممهدة ومكملة .

٢ ـ ستتوج بفهارس خاصة ثم بفهرس عام يجمع مافيها كلها ليسهل على القارئ تتبع مايريد دون عناء ولا مشقة .

والله أسأل أن يعين على التمام ، ويوفق إلى السداد ، إنه نعم المولى ونعم المجيب .

إبراهيم الأبيارى

ربيع الأول ١٤٠١ هـ

يناير ١٩٨١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآل محمد وسلم

أَخبار مجموعة فى افتتاح الأَندلس وذِكْر مَن وَلِيها من الأُمراءِ إلى دخول عبد الرحمن بن معاوية ، وتغلّبه عليها ، ومُلكه فيها هو وولده ، والحُروب الكائنة فى ذلك بينهم .

* * *

روى أنه لما اشتغل الناسُ بالفِتن ، واشتغل عبد الملك بن مروان بعبد الله بن الزبير وبالأَزارقة ، وابن الأَشعث وغيرهم ، اشتدّ أَمرُ الروم والأَكراد وبَقايا فارس ، فارتجعوا بلدانا كثيرة ، نَفوا أهل الشام عنها ، فجاهد عبدُ الملك ، لما خَلَا ذَرْعُه(١) ، فأَخرجهم عن بعضها وبقى الأَكثر ، فبعث الوليد — رحمه الله — البُعوث فارتجع مدائن الروم ، وأَقحم عليهم(٢) فى غيرها ، ثم ارتجع مدائن خُراسان ، وأَقحم عليهم(٢) حتى اسْتَقْصى البلاد ، ولم يَبق من سلطان الفرس إلا الأَكراد لامتناع حالهم .

وكان أَهَمّ ثُغوره اليه ثَغر إفريقية ، وقد كان عُقبة بن نافع الحارثى ، حارث فِهر ، اختَط قَيروان إفريقية ، وبنى حِصنها ، وهو عامل لعبد الله ابن سعد بن أَبى سَرح العامرى ، عامر لُؤَىّ ، فى زمان عثمان ، رحمه الله ، ثم مَضى فافتتح ما خلفها حتى بلغ تونس ، وبلغ سَبْرة(٣) .

---

(١) الذرع : الطاقة والوسع ، يريد : لما فرغ مما يشغله .

(٢) المسموع : قحم

(٣) سبرة : بفتح أوله وسكون ثانيه : مدينة بإفريقية بعد إطرابلس ، افتتحها عمرو بن العاص سنة ٣٢هـ . (معجم البلدان : ٣ : ٣٢) .

ثم هاجت فتنة عثمان ، رحمه الله ، فانقطعت الصوائف (١) عن إفريقية ، واشتد أَمر البَربر ، ثم انقطعت الفتنة فرجعت الصوائف على يدى معاوية ، رحمه الله ، فاستقامت إفريقية ، حتى غزا عُقبة بن نافع سنة ثلاث وستين ، وهو عامل الجزيرة فى زمان يزيد بن معاوية ، رحمه الله ، طَنجة ، فلقيته قبيلةُ للبربر يقال لها أَوربة(٢) ، فهزموا أَصحابه ، واستُشهد ، رحمه الله .

ثم هاجت فتنة ابن الزبير وغيرها إلى أَن تَفَرغ(٣) عبدُ الملك ، فولى الوليدُ ، وثغرُ إفريقية أَهَم الثغور إليه ، فدعاَ موسى بن نُصير ، مولى بنى أُمية ، وأَصله من عُلوج أَصابهم خالدُ بن الوليد ، رحمه الله ، فى عَين التَّمْر (٤) ، فادعوا أَنهم رُهن ، وأَنهم من بكر بن وائل ، فصار نُصير وصيفاً لعبد العزيز بن مروان ، فأَعتقه وبعثه وعَقد له فى سنة ثمان وسبعين على إفريقية وما خلفها ، وأَخرجه إلى ذلك الوجه فى نفر قليل مُطَّوعين ، لم يَخرج له جُند من الشام ، واكتفى له بجُنود مصر وإفريقية وبمن تَطوع ، فسار حتى وَرد مصر ، فأَخرج معه من جُندها بَعْثاً ، ثم سار حتى أَتى افريقية ، وأَخرج معه من أَهلها أَهلَ القُوة والجَلد ، وعلى مقدّمته طارقُ بن زياد .

---

(١) الصوائف : جمع صائفة ، وهى الميرة قبل الصيف .

(٢) الأصل : « أوروبة » . وما أثبتنا من تاريخ ابن خلدون (٤ : ١٣ ، دار الكتاب اللبنانى) .

(٣) لعلها : توفى

(٤) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة ، افتتحها المسلمون فى أيام أبى بكر على يد خالد بن الوليد سنة اثنى عشر للهجرة (معجم البلدان ٣ : ٧٥)

فلم يزل يُقاتل البربر ويَفتتح مدائنهم وبلدانهم حتى بلغ طنجة ، وهى قَصبة بلاد البربر وأُمّ قُراهم ، فافتتحها ، ولم تكن افتُتحت قبل .

ويقال : إنها افتتحت ثم ارتجعت ، فالله أَعلم .

فأَسلم أَهلها ، واختطها قَيروانا (١) للمسلمين وأَوطنها إياهم ، وكتب بذلك إلى الوليد سنة تسع وثمانين .

ثم سار موسى يُريد مدائن على شَط البحر فيها عُمّال صاحب الأَندلس ، قد غَلبوا عليها وعلى ما حولها ، وكان رأس تلك المدائن مدينة ، يقال لها : سَبْتة(٢) ، وكان عليها وعلى ماحولها من المدائن عِلْجٌ يُسمَّى : يُليان، فقاتله موسى بن نصير ، فأَلفى عنده عُدة وقوة ونَجد ، ليست تُشبه ما قبلها ، فلم يُطقهم ، فرجع عنهم إلى طَنجة ، وجعل يَجتثُّ ما حولهم بالمُغاورة(٣) فلم يُطقهم ، وكانت المراكب تختلف إليهم من الأَندلس بالمعاش والأَمداد ، ومع ذلك كانوا يُحبون بلادهم ويذبُّون عن حريمهم ذبًّا شديدا ، حتى هلك ملك الأَندلس غَيطشة ، وترك أَولادا لم يَرْضَهم أَهلها ، منهم : شِشْبرت ، وأَبّه (٤)، فاضطرب حبلُ الأَندلس ، فتراضَوا على عِلْج يقال له : لُذَريق(٥) ، شُجاع هَجوم ، ليس(٦) من بَيت الملك ، الا أَنه من قُوادهم وفرسانهم ، فولوه أَمرهم .

---

(١) القيروان ، معرب ، وأصله بالفارسية : كاروان ، وهو بمعنى : القافلة ، ومعظم الجيش . (المعرب للجواليقى : ٢٥٤ ، استينجاس : ١٠٠٣) . ولعله يريد : معسكرا .

(٢) سبتة ، بفتح أولها ، وقيل بكسره ، من قواعد بلاد المغرب . (معجم البلدان : ٣ : ٣٠) .

(٣) المغاورة : الإغارة .

(٤) ويقال فيه «وبه» . (وفيات الأعيان : ٤ : ٣٧٠ ، دار صادر) .

(٥) الأصل هنا : «رذريق» ، وبها يرسم أيضا .

(٦) فى الأصل : « ليس له » .

وكان جَميع ملوك الأَندلس يَبعثون أَولادهم الذُكور والإناث إلى بلاط ملكهم بطُليطلة (١) ، وهى يومئذ قَصبة الأَندلس ، ودار ملكها ، يكونون فى خِدمة ملكها لا يَخدُمه غيرهم ، يتأَدّبون بذلك ، حتى إذا بلغوا أَنكح بعضَهم من بعض ، وتولّى تجهيزهم .

فلماَ ولى لُذَريق أَعجبته ابنةُ يُليان ، فوثب عليها ، فكُتِب إلى أَبيها : إن الملك وقع بها ، فأَحفظ العِلْجَ ذلك ، وقال : ودين المسيح لأَزيلنّ مُلكه ،ولأَحفرنّ تحت قدميه ، فبعث إلى موسى بالطاعة ، وأَقبل به فأَدخله المدائن، بعد أَن اعتقد لنفسه ولأَصحابه عهداً رضيه واطمأَن إليه ، ثم وَصف له الأَندلس ، ودعاه إليها ، وذلك فى عقب سنة تسعين .

فكتب موسى إلى الوليد بتلك الفُتوح وبما دعاه اليه يُليان ، فكتب إليه : أَن خُضها بالسَّرايا حتى تَختبر ، ولا تُغَرِّر بالمسلمين فى بَحر شديد الأَهوال .

فكتب إليه : إنه ليس ببحر ، وإنما هو خليج ، يَصِف صِفَة ما خلفه للناظر .

فكتب إليه : وإن كان ، فاختبره بالسَّرايا .

فبعث رجلاً من مواليه ، يقال له : طَريف ، ويُكنى بأَبى زُرعة ، فى أَربعمائة ، ومعهم مائة فرس ، فسار فى أَربعة مراكب ، حتى نزل بمراكبه جزيرة ، يقال لها : جزيرة الأَندلس ، التى هى مَعبر مراكبهم ودار صناعتهم ، يقال لها : جزيرة طَرِيف ، سُميت به لنُزوله فيها .

فأَقام حتى تتامّ إليه أَصحابه ، ثم نهض حتى أَغار على الجزيرة،

(١) طليطلة ، بضم الطاءين وفتح اللام ، وقيل بضم الأولى وفتح الثانية ، وهو الأكثر . (معجم البلدان : ٣ : ٥٤٥) .

فأَصاب سَبْيًا لم يَرَ مُوسى مثله ولاأَصحابه ، ومالا جسيمًا ، ورجع سالمًا وذلك فى رمضان سنة إحدى وتسعين .

فلما رأى ذلك تسرعوا إلى الدخول . فدعا موسى مولًى له ، كان على مقدماته ، يقال له : طارق بن زياد ، وكان فارسًا همدانيًّا ، ويقال : إنه ليس بمولاه . وأنه من موالى صَدِف ، فبعثه فى سَبعة آلاف من المسلمين جُلهم البربر والموالى ، ليس فيهم عَرب إلا قليل ، فدخل فى تلك الأَربع السفن ، لاصِناعة لهم غيرها ، وذلك فى سنة اثنتين وتسعين .

فاختلفت السفن بالرجال والخيل . وضَمهم إلى جبل على شط البحر مَنيع ، فنزله ، والمراكب تختلف حتى توافى جميع أَصحابه .

وكان الملك ، لما بلغته غارة طريف ، أَعظم ذلك ، وكان غائبًا قد غزا بَنْبَلُونة (١) ، فأَقبل منها وقد دخل طارق . فجمع له جمعًا ، يقال : إنه مائة أَلف ، أَو شبه ذلك .

فما بلغ إلى طارق كتب إلى موسى يَستمده (٢) ويُخبره أَن قد فَتح الله الجزيرة واستولوا عليها وعلى البُحيرة ، وأَنه قد زَحف إليه ملك الأَندلس بما لاطاقة له به .

وكان موسى مُذ وجّه طارقا أَخذ فى عمل السُّفن حتى صارت معه سُفن كثيرة ، فحمل إليه خمسةَ آلاف ، فتوافى المسلمون بالأَندلس ، عند طارق اثنا عشر أَلفا ، وقد أَصابوا سَبْيًا كثيرًا ورفيعًا ، ومعهم يليان فى جماعة من أَهل البلد يدلّهم على العورات ويتحسس لهم الأَخبار .

(١) بنبلونة : مدينة بالأندلس من نواحى سرقنطة (صفة جزيرة الأندلس : ٥٥) .

(٢) الأصل : « يستعده » ، تحريف .

فأَقبل إليهم لُذَريق ، ومعه خِيار أَعاجم الأَندلس وأَبناء ملوكها ، فلما بلغتهم عدة المسلمين وبصائرهم (١) تلاقوا بينهم ، فقال بعضهم لبعض : هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أَهله ، وإنما كان من سُفّالنا ، وهؤلاءِ قوم لاحاجة لهم بإيطان بلدنا ، إنما يريدون أَن يملئوا أَيديهم ثم يخرجون عنا ، فانهزم بنا بابن الخبيثة إذا لقينا القوم .

فأَجمعوا لذلك ، وكان « لُذَريق قد ولَّى ششبرت ميمنته ، وأَبّة ميسرته ، وهما ابنا (٢) الملك غَيطشة الذى كان ملكًا قبله ، وهما رأْس من أَدار عليه الانهزام .

فأَقبل فى جَيش جحفل نحو المائة الأَلف ، وذلك أَن الأَندلس قد كانت جاعت سنة ثمان وثمانين ، فضارت (٣) جوعًا سنة ثمان وسنة تسع وسنة تسعين ، ووَبئت حتى مات نصف أَهلها أَو أَكثر ، ثم كانت سنة إحدى وتسعين ، وهى بالأَندلس سنة طريف سنة خَلَفٍ(٤) .

فالتقى لُذريق وطارق ، وهو بالجزيرة ، بموضع يقال له : البُحيرة ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، فانهزمت الميمنة والميسرة ، انهزم بهم ششبرت وأَبة ، ابنا غيطشة ، ثم قابل القلب شيئًا من قتال ، ثم انهزم لُذريق ، وأَذرَع (٥) فيهم المسلمون بالقتل ، وغاب لُذريق فلم يُدْرَ أَين وقع ،

---

(١) البصائر : جمع بصيرة ، وهى ما يتخذ جنة ، كالدرع والترس .
(٢) الأصل : « أبناء » .
(٣) الأصل : « فـــدارت » ، تحريف .
(٤) خلف ، أى عوض وبدل .
(٥) أذرع : أكثر .

إلا أن المسلمين وجدوا فَرسه الأَبيض ، وكان عليه سَرج له من ذهب مُكلَّل بالياقوت والزَّبرجد ، ووجدوا حُلة من ذهب مكلَّلة بالدر والياقوت ، قد ساخ الفرسُ فى الطين ، وفى السُّواخ (١) وقع فيه وغَرِق العِلْجُ ، فلما أَخرج رجله ثبت الخف فى الطين ، والله أَعلم ماكان من أَمره ، لم يسمع له خبر ولاوجد حيًا ولاميتًا .

ثم مضى طارق إلى مضيق الجزيرة ، ثم إلى مدينة إِسْتِجَة (٢) ، فلقيه أَهلُها ، ومعهم فَلٌّ من العسكر الأَعظم ، فقاتلوه قتالا شديدًا حتى كثر القتل والجِراح فى المسلمين ، ثم إن الله أَنزل عليهم نصره وهزم المشركين . فلم يلقوا حربًا مثلها .

فورد طارق عينًا من مدينة إِسْتِجَة على نهرها ، على أَربعة أَميال ، فسميت العَين : عين طارق . وقذف الله الرعب فى قلوب العُلوج لما رأُوه أَقحم (٣) فى البلد ، وكانوا يظنون أنه يفعل فعل طَريف ، فهربوا إلى طُليطلة ، وغلَّقوا مدائن الأَندلس .

وأَقبل يُليان إلى طارق فقال له : قد فرغت بالأَندلس ، وهؤلاءِ أَدلاءُ من أَصحابى ، فَرِّق معهم جيوشك وخُذ أَنت إلى طُليطلة .

فَفرق جيوشه من إِسْتِجَة ، فبعث مُغِيثا الرُّومىّ ، مولى الوليد بن عبد الملك ، إلى قُرطبة ، وكانت من أَعظم مدائنهم ، وهى اليوم قصبة

---

(١) السواخ ، بالضم : الوحل الشديد .

(٢) استجة ، بالكسر ثم السكون وكسر التاء فوقها نقطتان وجيم وهاء . (معجم البلدان : ١ : ٢٤٢) . وجاءت مشددة الجيم ضبط قلم فى صفحة جزيرة الأندلس (ص : ١٤) .

(٣) المسموع : قحم .

الأَندلس وقيروانها ومَوضع ملكها ، فى سبعمائة فارس ، لم يبعث معهم راجلاً واحدًا ، ولم يكن بقى من المسلمين راجلٌ إلا ركب ، وبعث جيشا إلى مدينة رَيَّة (١) ، وبعث إلى غَرناطة ، مدينة إلبيرة ، وسار هو فى عُظْم الناس ، يُريد طليطلة .

وسار مُغيث حتى أَتى قرطبة فكَمن بقرية شَقُنْدة فى غائضة أَرْز ، كانت بين قرية شَقُنْدة وقرية طَرْسَيْل ، وبعث من معه من أَدلائه ، فاقتنصوا له راعى غَنم ، فأَوردوه عليه وهو فى الغائضة بغنمه ، فسأَله عن قُرطبة ، فقال له : رحَل عنها عُظماء أَهلها إلى طُليطلة ، وأَبقوا فيها مَلِكها فى أَربعمائة من حُماتهم مع ضعفاء أَهلها . ثم سأَله عن حَصانة سورها ، فأَخبره أَنه حَصِين إلا أَن فيه ثغرة فوق باب السُّور ، وهو باب القنطرة ، ووصف لهم الثغرة .

فلما أَجنّهم الليل أَقبل مُغيث ، ومما هيأَ الله له الفتح أَرسل له السَّماء برذاذ مختلط بِقِطْقِط (٢) ، فأَقبل على نهر قُرطبة ليلا ، وقد أَغفل حَرس السور الحراسة خوفًا من البرد والمطر ، فإنما تسمع صيحات (٣) ضعيفة متفاوتة .

فدخل القوم حتى عَبروا النهر ، وليس بين النهر والسور إلا قدر ثلاثين ذراعًا أَو أَقل ، فرامُوا التعلُّق بالسور فلم يجدوا متعلّقًا ، فرجعوا إلى الراعى فأَقبلوا به فدلّهم على الثغرة ، وإذا هى ثغرة ليست مستأْصلة ، وفى أَسفلها شجرة تين ، فراموا التعلُّق بها فتعذّر ذلك ، حتى صعد رجل

(١) قيدت بالعبارة فى معجم البلدان لياقوت (٢ : ٨٩٢) بفتح أولها وتشديد ثانيها . وضبط قلم فى صفة جزيرة الأندلس (ص : ٧٩) بفتح فتشديد الياء مضمومة .

(٢) القطقط : المطر المتتابع .

(٣) الأصل : « صياحا » .

من المسلمين فى أَعلاها ، ثم نَزع مُغيث عمامته ، فناوله طرفها ؛ ثم ارتقى الناس حتى كثروا على السور ، وركب مُغيث حتى وقف بباب الصورة من خارج ،وأَمر أَصحابه الذين دخلوا المدينة بالهجوم (١) على حُرّاس (٢) باب الصورة ، وهو باب القنطرة ، والقَنطرة يومئذ قد تهدَّمت ، لم تكن بقُرطبة قنطرة ، فهجم المسلمون على حُرَّاس (٣) باب الصُّورة . وكان يُقال لها إذ ذاك : باب الجَزيرة ، فقتَلوا فيهم ، وهَزموهم وكسروا الأَقفال .

فدخل مُغيث بجماعة من معه من أَصحابه وعُيونه وأَدلائه ، فصَمد (٤) إلى البلاط ، فلما بلغ المَلِكَ دخولُهم خرج فى جملة أَصحابه ، وهم أَربعمائة أَو خمسمائة ، ومَن خرج معه من باب المدينة الغربى ، يقال له : باب إشبيلية ، فتحصَّن بكنيسة فى غربىّ المدينة حصينة ذات بُنيان وتَقانة (٥) ، وهى : شَنْت أَجلح ، فدخلها ، ودخل مُغيث بلاط قُرطبة فاختطه ، ثم خرج يومًا آخر فحَصر العلوج بالكنيسة ، وكتب إلى طارق بالفتوح .

ومضى الجيشُ الذى توجه إلى رَيَّة ففتحها ، ونجا علوجُها إلى جبال مُمتنعة . ومضى ليلحق بالجيش المتوجه إلى إلبيرة (٦) ، فحصروا

---

(١) الأصل : « بالهجم » .
(٢) الأصل : « أحراس » .
(٣) الأصل : « أحراس » .
(٤) صمد إلى : قصد إلى .
(٥) تقـــانة : إتقان .
(٦) انظر الحاشية (رقم : ١ ص : ٢٢) .

مدينتها فافتتحت ، فأَلْفَوْا بها يومئذ يهودًا ، وكانوا إذا أَلْفَوا اليهود ببلدة ضَموهم إلى مدينة البَلد ، وتركوا معهم من المسلمين طائفةً .

ومضى عُظم الناس ففعلوا ذلك بغَرناطة ، مدينة إِلْبيرة (١) ، ولم يفعلوا ذلك بمالقة ، مدينة ريَّة ، لأَنهم لم يجدوا بها يهودًا ولاعِمارة . وإنما كانوا لاذُوا بها وقت حاجتهم .

ثم مضى إلى تُدمير(٢) ، وإنما سُميت : تُدمير ، باسم صاحبها . إنما كان يقال لها : أُورِيوُلة ، فلقيهم صاحبُها فى جَيش جحفل . فقاتلهم قتالا ضعيفًا ، ثم انهزم فى فَحْص(٣) لايستُر شيئًا . فوضع المسلمون فيهم السلاح حتى أفنوهم . ولَجأَ من بقى إلى المدينة أُورِيُولة . وليست فيهم بقية ولاعندهم مَدفع ، وكان تُدمير صاحبَهم مُجَرّبًا شديد العقل . فلما رأَى أن لابقية فى أَصحابه أَمر النساءَ فنشرْنَ شعورهن وأَعطاهن القَصب وأَوقفهم على سُور المدينة ، وأَوقف معهن بقية مَن بقى من الرجال فى وَجه الجيش ، حتى عَقد على نفسه ، ثم هَبط بنفسه كهيئة الرسول . فاستأْمن فأُمِّن ، فلم يزل يُراوض أَمير ذلك الجيش حتى عَقد على نفسه الصُّلح ، وعلى أَهل بلده ، فصارت تُدمير صُلْحًا كلها . ليس منها عَنوة ، قليل ولاكثير ، وعاملهم على تَرك أَمواله فى يديه . فلما فرغ أَبرز لهم اسمه وأَدخلهم المدينة ، فلم يَروا فيها أَحدًا عنده مَدفع . فندم المسلمون ، ومَضوا على ماأَعطوه ، وكتبوا بالفتوح إلى طارق .

(١) إلبيرة . الألف فيها ألف قطع وليس بألف وصل ، بوزن : إخريطة . وبعضهم يقــول : بالبيرة . (معجم البلدان : ١ : ٣٤٨) .

(٢) انظر الحاشية (رقم : ١ ص : ٢٣) .

(٣) الفحص : كل موضع يسكن .

وأقام بتدمير (١) مع أَهلها رجال ، ومضى عُظم الجيش إلى طليطلة إلى طارق ، وأَقام مُغيث محاصرًا للعلوج فى كَنيسة قرطبة ثلاثة أَشهر ، حتى طال عليهم الحصار ، فبينما هم صبيحَة يوم إذ أَتى مُغيث ، فقيل له : قد خرج العِلْجُ هاربًا وحده مُنْسَلاً يريد جبل قُرطبة ليلحقَ بأَصحابه بطليطلة ، وترك أَصحابه فى الكنيسة ، فأَتْبعهم مُغيث وحدَه ، ليس معه أَحد ، فلما أَبصره هاربًا تحته فرسُ أَصفر يُريد قرية قَطَلْبيرة ، فالتفت العلج ، فلما أَبصر مُغيثًا قد حَرَّك فرسه عليه دَهش ، فخرج عن طريقه فأَتى خندقًا ، فوثب الفرسُ واندقت رقبته ، وأَقبل مُغيث والعلج جالس على تُرسه مستأَسرًا ، فأَسره مُغيث ، ولم يُؤْسر من ملوك الأَندلس غيره ، منهم من اعتقد على نَفسه أَمانًا ، ومنهم من هرب إلى جِلِّيقيّة(٢).

ورجع مُغيث إلى بقية العلوج ، فاستنزلهم أَسرى ، فضرب أَعناقهم ، فسُمِّيت تلك الكنيسة : كَنيسة الأَسرى ، وحَبس ذلك العِلْجَ ليقدَم به إلى أَمير المؤمنين ، وجمع يهود قُرطبة فضمَّهم إليها ، واختط قصبتها لنفسه ، والمدينة لأَصحابه .

وسار طارق حتى بلغ طُليطلة ، وخلَّى بها رجالا من أَصحابه ، فسلك إلى وادى الحجارة ، ثم استقبل الجبلَ فقطعه من فَجٍّ يسمى : فج طارق ، وبلغ مدينةً خلف الجبل تسمى : مدينة المائدة ، وإنما سميت : مدينة المائدة ، لأَنه وجد فيها مائدة سليمان بن داود — عليه السلام — من زَبرجد ، خضراء منها حافاتها وأَرجلها ، ولها ثلثمائة رجل ، وخمس وسبعون رجلا .

---

(١) تدمير ، بالضم ثم السكون وكسر الميم وياء ساكنة وراء . (معجم البلدان : ١ : ٨٣٠) .

(٢) انظر الحاشية (رقم : ٢ ص : ٣٤) .

ثم مَضى إلى مدينة أَمَايَا ، فأَصاب بها حَلْيًا ومالاً ولم ... (١) .

ثم رجع إلى طُليطلة فى سنة ثلاث وتسعين .

ثم دخل موسى بن نصير فى رمضان سنة ثلاث وتسعين فى جماعة الناس ، يقال معه ثمانية عشر أَلفًا ، وقد بلغه ماصنع طارق ، فحسده ، فلما نزل الجَزيرة قيل له : اسلك طريقَه ، قال : ماكنت لأَسلك طريقَه قال له العُلوج الأَدلاء : نحن ندلك على طريق هو أَشرف من طريقه ، ومدائن هى أَعظم خَطْبًا من مدائنه ، لم تُفتح بعدُ ، يفتحها الله عليك ، إن شاءَ الله .

فامتلأَ بذلك سروراً ، فكان فِعل طارق قد غمَّه ، فساروا به إلى مدينة شَذُونة ، فافتتحها عَنوة ، أَلقوا بأَيديهم إليه ، ثم سار إلى مدينة قَرْمونة (٢) ، فقدَّم إليها العلوج الذين معه .

وهى مدينة ليس بالأَندلس أَحصن منها ولاأَبعد من أَن تُرجى بقتال أَو حصار ، وقد قيل له حين دنا منها (٣): ليست تؤخذ إلا باللُّطف ، فقدَّم إليها عُلوجا ممن قد أَمَّنَه واستأَمن إليه ، مثل يُليان ، ولعلهم أَصحاب يُليان ، فأَتوهم على حال الأَفْلال (٤)، معهم السلاح . فأَدخلوهم مدينتهم ، فلما دخلوها بعث إليهم الخيل ليلاً ، وفتحوا لهم باب قرطبة ، فوثبوا على حُراسه (٥) ، ودخل المسلمون قَرْمونة (٢) .

(١) بياض بالأصل .
(٢) هذا ماعليه الأكثر ، ويقال فيها : قرمونية (معجم البلدان : ٤ : ٦٩) .
(٣) الأصل : « دعا اليه » .
(٤) الأفلال : جمع فل ، وهم القوم المنهزمون .
(٥) الأصل : « أحراسه ».

ومضى موسى إلى إشبيلية ، وهى أَعظم مدائن الأَندلس شأْنًا وخطبًا ، وأَعجبها بُنيانًا وآثارًا ، وكانت دار الملك قبل غلبة القُوطيين على الأَندلس ، فلما غلبت القوطيون حوَّلوا السلطان إلى طُليطة وبقى شرف الرُّومانيين وفقهم ودينهم ورياستهم فى دُنياهم بإشبيلية .

فأَتاها موسى بن نُصير حتى حَصرها أَشهرًا ، ثم إن الله فتحها ، وهرب العلوج إلى مدينة باجّة ، فضم موسى يهودها ، ومضى إلى مدينة مارِدَة ، كانت أَيضًا دار بعض ملوك الأَندلس ، ذات آثار وقنطرة وقصور وكنائس تَفوق الوصف ، فحَصرها ، وقد كان أَهلها خرجوا إليه ، وزَحمهم دفعةً ، فقاتلوه من سورها على قدر ميل أَو أَكثر قتالا شديدًا ، فلما رأَى خروجهم إليه أَبصر فيها حُفرًا ،كانت مقاطع للصخر ، فأَكمن فيها الرجال والخيل ليلا ، فلما أَصبح زَحف إليهم ، فخرجوا إليه كهيئة خروجهم بالأَمس ، فركبهم المسلمون ، وخَرج عليهم الكمينُ وقُتلوا قتالاً ذريعًا ، ونجا من نجا منهم إلى المدينة ، وهى مدينة حَصينة لها سور لم يَبْن الناسُ مثله ، فَثَبَت عليهم يُقاتلهم أَشهرًا ، حتى عمل دبابة ، فدَب المسلمون تحتها إلى بُرج من أَبراجها ، فنقبوا صَخره ، فلما نَزعوا صخره أَفْضَوا فى داخله إلى الصمَّاء التى يقال لها : اللاَّشة ماشَّه(١)، بلسان أَهل الأَندلس، فَنَبَتْ عنها معاولهم وفُئوسهم ، فبينما هم يضربون فيها إذ استفاق عليهم العلوجُ ، فاستُشهد المسلمون تحت الدبَّابة ، فسُمِّى ذلك البرج : بُرْجَ الشهداء ، إلى اليوم ، وما أَقل من يعرف هذا ، وكان فَتحه لها فى رمضان سنة أَربع وتسعين يوم الفِطر .

---

(١) Laxmaxo

فلما كان من أَمر الشُّهداء ماكان ، قال العلوج : قد كَسرناه ؛ فإن كان يومًا مجيبًا إلى الصُّلح فاليوم ، فاطلبوه إليه .

فخرجوا إليه فأَلفوه أَبيض اللِّحية ، فراوضوه على شئ لم يُوافقه ، ثم رَجعوا ، فلما كان قبل العيد بيوم خَرجوا إليه ليراوضوه ، فإذا هو قد شَبّب(١) لِحيته بالحِناء ، فأَلفوه أَحمر اللِّحية ، فعَجبوا ، وقال قائلهم : أَظنّه يأْكل ولد آدم ، أَو ماهذا الذى رأَيناه بالأَمس .

ثم خرجوا إليه يوم الفطر ، فإذا اللحية سوداء ، فرجعوا إلى أَهل مدينتهم ، فقالو : ياحُمقاء ، إنما تقاتلون أَنبياءَ يتخلَّقون كيف شاءُوا يتَشبَّبون ، قد صار مَلِكهم حَدَثًا بعد أَن كان شيخًا ، اذهبوا فأَعطوه ما سأَل ، فصالحوه على أَنَّ جميع أَموال القتلى يوم الكَمين ، وأَموال الهاربين إلى جِلِّيقيّة ، للمسلمين ، وأَموال الكنائس وَحُليها له .

ثم فتحوا له المدينة يوم الفِطر فى سنة أَربع وتسعين ، ثم إن عَجم أَهل إشبيلية تحيَّلوا على من بها من المسلمين ، وجاءُوا من مدينة يقال لها لَبْلة ، ومدينة يقال لها : باجَة ، فقتلوا من بها من المسلمين ، قُتل فيها ثمانون رجلاً ، فقَدم فَلُّهم على موسى بن نصير بمارِدة . فلما فَتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جَيش إلى إشبيلية ، فافتتحها ورجع .

ثم مَضى موسى من ماردة ، فى عقب شوال ، يُريد طليطلة ، وبلغ طارقًا إقبالُه ، فخرج مُعظماً له متلقِّيًا ، فلقيه بكورة طَلَبيرة (٢) بموضع

---

(١) الأصـــل : « شيب » .

(٢) طلبيرة ، بفتح أوله وثانيه وكسر الباء الموحدة ثم ياء مثناة من تحت ساكنة وراء مهملة . (معجم البلدان : ٣ : ٥٤٢) .

يقال له : بابد (١) ، فلما رآه نزل إليه ، فوضع موسى السوط على رأسه وأنَّبه فيما كان من خلاف رأْيه ، ثم سار به إلى مدينة طُليطلة ، ثم قال له : احضُرنى بما أَصبت وبالمائدة ، فأَتاه بها ، وقد اقتلع رجْلاً كسرها من أَرجلها ، فقال له : أَين هذه الرجل ؟ فقال : إننى لاعِلم لى ، كذلك أَصبتها ، فأَمر بالرِّجْل فعُملت لها من ذهب ، وعُمل لها سَفَطٌ من خُوص، فأَدخلها فيه ، ثم سار حتى افتتح سَرَقُسْطه ومدائنها .

ثم جاءَ رسول الخليفة الوليد سنة خمس وتسعين ، فأَخذ بعِنان موسى ، فأَخرجه من الأَندلس ، وطارق معه ومُغيث ، وخلَّف ابنه عبد العزيز على الأَندلس ، استخلفه على مدائنها وبلدانها ، وأَسكنه إشبيلية ، وهى مدينة على نهر عظيم لايُخاض ، فأَراد أَن تكون فيه سُفن المسلمين ، وتكون بابَ الأَندلس .

فأَقام عبد العزيز ، وخرج أَبوه ومعه طارقٌ ومُغيث ، ومع مُغيث العِلج مَلِك قرطبة الذى أَصاب بها .

وكان مُغيث يُدِلّ بمكان ولائه من الخلافة ، فبَعث إليه موسى : هاتِ العِلْج ، فقال : والله لاتأخذه ، وأَنا أَقْدُم به على الخليفة ، فهَجم عليه فنزعه منه ، فقيل له : إنْ سِرْتَ به حيًّا ، قال مُغيث : أَنا أَصبته ، ولكن اضرب عُنقه ، ففَعل .

ثم مضى حتّى قَدِم على سليمان ، وقد مات الوليد .

ثم إن ابنه عبد العزيز تزوّج امرأَة بلُذَريق ، يقال لها : أُم عاصم ، فهمّ بها ، فقالت له : إن الملوك إذا لم يتَتوجوا فلا مُلك لهم ، فهل لك أَن

---

(١) كذا جاءت مهملة النقط .

أعمل لك مما بقى عندى من الجواهر والذهب تاجًا ؟ فقال لها : ليس هذا فى دِيننا ، فقالت له : من أين يعرف أهلُ دينك ماأنت عليه فى خَلوتك؟ فلم تزل به حتى فعل ، فبينما هو يومًا جالس معها والتاجُ عليه . إذ دخلت امرأةٌ كان قد تزوجها زياد بنُ النابغة التميمىّ ، من بنات ملوكهم ، فرأته والتاج على رأسه ، فقالت لزياد : ألَا أعمل لك تاجًا ؟ فقال : ليس فى ديننا استحلالُ لباسه ، فقالت : فَوَدِينِ المسيح إنه لعلى إمامكم ، فأعلم بذلك زيادٌ حَبِيبَ بن أبى عُبيدة بن عُقبة بن نافع . ثم تحدَّثا به حتى عَلمه خِيارُ الجند ، فلم تكُن له همة إلا كَشْف ذلك ، حتى رآه عيانًا ورآه أهلُه صِدْقًا ، فقالوا : تَنَصَّر ، ثم هَجموا عليه فقتلوه فى عَقِب سنة ثمان وتسعين . والخليفةُ بعدُ سليمانُ بن عبد الملك .

وقد افتتح فى ولايته مدائن كثيرة .

ثم اجتمع أهل الأندلس ، بعد أن أقاموا سنين لايَجمعهم والٍ . على ابن حبيب اللَّخمىّ ، وكان رجلاً صالحًا يَؤُمّهم لصلاتهم . فلما أطال بهم المُقام بلا والٍ ولَّوه أمرهم ، وحوَّلوا السلطان إلى قُرطبة فى أول سنة تسع وتسعين .

وكان مَقتل عبد العزيز بن موسى فى عَقب ثمان وتسعين ، فنزل أيوب بن حبيب البلاطَ بقُرطبة ، الذى كان مغيث اختطَّه لنفسه . وذلك أن موسى بن نُصير حين أقْفله رسولُ الوليد أقبل على طريق ليختبر الأندلس ، فأقبل إلى قُرطبة . فقال لِمُغيث : إن هذا البلاط ليس يصلح لك ، إنما يصلح لوالى قرطبة ، فاعْتَضْ (١) مكانه ، فاعتاض

(١) الأصل : « فاعتاض » .

مُغيث دارًا فوق باب الجزيرة ، وهو باب القنطرة ، مُقابل الثَّلمة التى دخل منها أَصحابه حين افتتح قُرطبة ، وكانت دارًا شَريفة ذات سَقى وزيتون وثمار . يقال لها : اليَسَّانة (١) . كانت (٢) للملك الذى أَسره ، وكان له فيها بلاطٌ مُنيف شريف ، فهى تُسَمَّى بالأَندلس : بلاط مُغيث .

ولما بلغ سليمانَ مقتلُ عبد العزيز بن موسى شَقّ ذلك عليه ، فولى إفريقية (٣) عبد الله بن يزيد (٤) ، لقُريش . لاأدرى لمن مِنْ قُريش .

وإلى وَالِى إفريقية كان أَمرُ الأَندلس وطَنْجة ، وكُل ماوراء إفريقية .

وأَمره سليمانُ . فيما فعله حبيبُ بن أَبى عُبيدة ، وزياد بن النابغة ، من قتل عبد العزيز ، بان يتشدَّد فى ذلك ، وأَن يُقفلهما إليه ، ومَن شَركهما فى قتله من وجوه الناس .

ثم مات سُليمان فسرَّح عَبدُ الله بن يزيد ، والى إفريقية على الأَندلس ، الحُرَّ بن عبد الله الثقفىّ ، وأَمره بالنظر فى شأن قتل عبد العزيز ، فلم يَستقر بالحرّ القرارُ حتى ولى عمر بن عبد العزيز — رحمه الله — الخلافة ، فعَزل عبد الله بن يزيد عن إفريقية ، وولاها إسماعيل بن عبد الله ، مولى بنى مَخزوم .

وذلك أَن الخلفاء كانوا إذا جاءتهم جِبايات الأَمصار والآفاق يَأْتيهم

(١) ليس لها مدلول فى الأسبانية .
(٢) الأصل : « كان » .
(٣) الأصل ، هنا : « عبيد » .
(٤) الأصل هنا : « زيد » .

مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأَجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينارٌ ولادرهم ، حتى يَحْلف الوفد بالله الذى لاإله إلا هو ما فيها دينار ولادرهم إلا أُخذ بحقه ، وإنه فَضْل أَعطيات أَهل البلد من المقاتلة والذُّرية ، بعد أَن أَخذ كل ذى حقٍّ حقَّه .

فأَتى وفدُ إفريقية بخراجها ، وذلك أَنها لم تكن يومئذ ثغراً ، فكان ما فَضل بعد أَعطيات الأَجناد وفرائض الناس يُنقل إلى الخليفة ، فلما وَفدوا بخراج إفريقية فى زمان سليمان ، أُمروا بأَن يحلفوا ، فحلف الثمانية ، ونَكل إسماعيل بن عُبيد الله ، مولى بنى مخزوم ، ونكل بنُكوله السَّمحُ بن مالك الخَولانى . فأَعجب ذلك عمرَ بن عبد العزيز من فعلهما ، ثم ضَمّهما إلى نفسه ، فاختْبر منهما صلاحاً وفضلاً .

فلما وَلِى عمُر ولّى إسماعيل افريقية ، وولى السَّمح بن مالك الأَندلس ، وأَمره أَن يُخَمِّس أَرضها ، ويُخرج منها ما كان عَنوة ، خُمسا لله من أَرضها وعقارها ، ويُقِرّ القُرى فى أَيدى غُنّامها ، بعد أَن يأَخذ الخمس ، وأَن يَكتب إليه بصفة الأَندلس وأَنهارها . وكان رأيُه انتقال أَهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين ، ولَيت الله كان أَبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم إلى بوار ، إلاَّ أَن يرحمهم الله .

وقَدمها السَّمحُ سنة مائة . فوضع يداً فى السؤال عن العَنوة ، ليميّزه من الصلح ، وفى إخراج البعوث ، وبنى القنطرة . وذلك أَنه كتب إلى عُمر يستشيره ويُعلمه أَن مدينة قرطبة تهدّمت من ناحية غربها ، وكان لها جِسر يَعْبر عليه نهرَها ، ووَصفه بخُموله(١) وامتناعه من الخوض الشتاء عامة ،

(١) الأَصل « بخمله » والمسموع ما أثبتنا ، يقال : خمل البناء خمولا ، إذا زالت آثاره .

فإن أمرني أميرُ المؤمنين ببُنيان سور المدينة فعلتُ ، فإنّ قِبَلى قوة على ذلك من خراجها ، بعدعطايا الجُند ونفقات الجهاد ، وإن أحب صرفت صَخر ذلك السور فبنيتُ جِسرهم .

فيقال — والله أعلم — : إن عمرَ — رحمه اللهُ — أَمر ببنيان القنطرة بصَخر السور ، وأن يُبنى السور باللَّبن ، إذ لا يجد له صخرا .

فوضع يداً فبنى القنطرة فى سنة إحدى ومائة .

ثم هلك عُمر — رحمه الله — فولَّى يزيدُ بنُ عبد الملك بِشْرَ بن صفوان . أخا حَنظلة بن صفوان . إفريقية . فعَزل بِشْرٌ السَمْح بن مالك . وولّى عنَبسة بن سُحيم الكَلبىّ .

ثم تتابعت ولاةُ الأَندلس بعد عَنبسة . فوليها يحيى بنُ مَسلمة الكلبى ، ثم وليها بعد يحيى عُثمانُ بن أَبى سعيد الخَثعمىّ تسعة(١) ، ثم وليها بعد عُثمان حُذيفة بن الأَحوص القيسىّ . ثم الهَيثم بن عُفير الكنانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقىّ . وعلى يديه استُشهد أَهل البلاط الشُّهداء ، واستُشهد معهم واليهم عبد الرحمن .

ووَلّى عبدُ الملك بن قَطن المُحاربى ، محاربَ فهر . من قُريش ، وولايته الأُولى نحو من ستة أَشهر ، لم تَطُل .

وكان مَن وَصفنا مِن الولاة يُجاهدون العدو . ويتوسعون فى البلاد ، حتى بلغوا إفرنجة (٢) ، وحتى افتتحت عامّة الأَندلس .

وكُلّ هؤلاء بشرُ بن صفوان كان يولِّيهم بغير أَمر الخليفة ، إذا

---

(١) يريد : تسعة أشهر .

(٢) يريد : فرنسا .

كره أهلُ الأَندلس والياً كتبوا إليه فعزله عنهم وولاهم من يرضون ، وكذلك إذا مات .

ثم ان هشام بن عبد العزيز — رحمه الله — بَعث على مصر عُبيد الله ابن الحَبحاب بن الحارث ، مولى بنى سَلول ، من قيس ، وجَعل إليه أَمر إفريقية والأَندلس ، فأَقرَّ بشر بن صفوان على إفريقية ، وولَّى عُقبَة بن الحجّاج الأَندلَس ، وهو مولاه : الحجّاجُ أَعتق الحارث .

فلما وَلى عُبيدُ الله مِصر ، وقد شَرُف وبلغ . وفَد عليه عُقْبةُ مولاه ، فأَجلسه معه على فراشه ، ولعُبيد الله أَولاد لهم فى أَنفسهم أَخطار وفى الناس ، فلما وَجدوه جالساً معه نَخروا (١) وعاتبوا أَباهم . وقالوا : عَمدت إلى أَعرابى فَجلَّسته معك ، وحولك وجُوه قريش والعرب . والله ليقمعن ذلك فى أَنفسهم بحيثُ تكره ، وأَنت شيخ لا نَأْسَى(٢) عليك . لعل الموت أَن يَختلسك من أَن تَستْضِر بعداوة أَحد ، وإنما نتوقع أَن يبقى علينا العار ، ومع ذلك لا نأَمن أَن يبلغ ذلك أَميرَ المؤمنين فيقع من قلبه إعظامُك هذا وتصغيرُك قُريشَ . فقال : يابَنىّ ، صدقتم ، ولم أُلْقِ بالاً لما ذكرتم ، وأَنا غير عائد .

فلما أَصبح بَعث إلى الناس فأَجلسهم ، وبعث إلى عُقبة فأَجلسه فى صدر المجلس ، وقعد هو عند رجليه ، فلما اجتمع الناس وكَثروا ، بَعث إلى أَولاده ، فلما دخلوا عجبوا ، وعلموا أَن الشيخ سيُطْلع بائقة(٣) .

فقامَ عُبيد الله على رجليه ، فحمد الله وأَثنى وصلَى [على] (٤)

(١) نخروا : صوتوا بخياشيمهم استنكارا .
(٢) الأصل : « لا قاسى » . ويبدو أنها محرفة عما أثبتنا .
(٣) البائقة : الداهية والشر .
(٤) تكملة يقتضيها السياق .

النبيّ، صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر ماكان من قَول أولاده ، ثم قال : أيها الناس ، أُشهد الله وإياكم ، وكفى بالله شهيدا ، أن هذا عُقبة بن الحجّاج ، وأن الحجّاج أعتق الحارث ، وأنّ أولادى هؤلاء لَعِب بهم إبليسُ وَعجَّبَهم بأَنفسهم ، فأَردت أن أبرأَ إلى الله من الكفر، ومن حَقٍّ هو لله ولهذا قِبلى ، وخِفْتُ أَن يترامَى الحَال بأَولادى إلى إنكار حقٍّ ، علمه الله ، بالتبرِّى منَ ولائى هذا وأبيه ، وأن يلعنهم الله واللاعنون ، فإنِّى سمعتُ عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أَنه قال : مَلْعُون من ادَّعى إلى غير نسبه ، مَلْعون من أنكر نِعمة المُنعم عليه ، وإن أَبا بكر الصديق ـ رحمه الله ـ قال : كُفْرٌ بالله تَبَرٌّ بالنسب وإن دَقَّ ، وكُفْرٌ بالله ادّعاء إلى نسب مجهول ، فكرهتُ لكم يابَنى أَن نَبوءَ بلعنة الله ولعنة اللاعنين ، فَأَكْثَرُ نظرى كان لنفسى ولكم ، وأَما قولكم : إن الأَمر يَقع لى عند أَمير المؤمنين بحيث أَكره ، كَلَّا ، أَميرُ المؤمنين ـ أَبقاه الله ـ أَحلمُ وأَعلم بالله وأَرعى لحقوقه من أَن يكون منه ما وصفتم ، بل يقع ذلك منه موقع رضاه .

فشكره الناس ودعوا له ، وقام ولده ، وقد أَصغرهم الحق وأَقْمأَهم(١) ، والتفت إلى عقبة فقال له : يا سيدى ، حقُّك واجب ، وقد بَسط لى أَميرُ المؤمنين ـ حفظه الله ـ ما ترى ، وأنت عند رِضًى ، فإن شئت وليتُك إفريقية ، ووليتُ صاحبَها الأَندلس إن أَحبّ ، وان شئت وليتُك الأَندلس .

فاختار عقبةُ الأَندلس ، وقال : إنى أُحب الجهاد ، وهى موضع جهاد ، فولَّاه .

---

(١) أقمأهم : أذلهم .

فدخل الأَندلس سنة عشر ومائة ، فأَقام عليها سنين ، وافتتح الأَرض حتى بلغ أَرْبُونة (١) وافتتح جِلِيقيّة (٢) ، وأُلْيَة (٣) ، وبَنْبلُونة ، ولم تَبق بجلّيقية قرية لم تُفتتح غير الصخرة ، فإنه لاذ بها مَلك يقال له : بِلَاىُ ، فدخلها فى ثلثمائة رجل ، فلم يَزل يقاتلونه ويغاورونه حتى مات أَصحابه جوعا ، وترامت طائفةٌ منهم إلى الطاعة ، فلم يزالوا ينقصون حتى بقى فى ثلاثين رجلا ليست معهم عُشر نَسْوة (٤) ، فيما يقال : إنما كان عيشهم بالعَسل ، ولاذوا بالصخرة فلم يزالوا يَتقّوتون بالعسل معهم جِبَاح النَّحل (٥) عندهم فى خُروق الصخرة (٦) .

وأَعيا المسلمين أَمرُهم ، فتركوهم وقالوا : ثلاثون عِلْجاً ما عَسى أَن يكون أَمرهم ، واحتقروهم ، ثم بلغ أَمرُهم إلى أَمر عظيم ، سنذكره إذا بلغنا موضعه ، إن شاءَ الله .

فأَقام عقبةُ على الأَندلس ، حتى لما كانت سنة إحدى وعشرين ، ثارت البربر على فِرق الإِباضية والصُّفرِيّة ، ورأَسوا عليهم ميسرة المحفوز المَدغرّى ، فَرَجعوا إلى عامل طنجة عُمر بن عبد الله المرادى ،

---

(١) أربونة ، بفتح أوله ويضم ثم السكون وضم الباء الموحدة وسكون الواو ونون وهاء . (معجم البلدان : ١ : ١٩٠) .

(٢) جليقية ، بكسرتين ولام مشددة وياء ساكنة وقاف مكسورة وياء مشددة وهاء . (معجم البلدان ٢ : ١٠٩) .

(٣) الأصل : « وألبة » ، تصحيف ، صوابها ما أثبتناه . وألية : بالضم ثم السكون وياء مثناة مفتوحة : قرية من نواحى إشبيلية وأخرى من نواحى إسقة . (معجم البلدان : ١ : ٣٥٥) .

(٤) النسوة ، بالفتح : الجرعة من الشراب .

(٥) جباح : النحل خلاياه ، الواحدة : جبح .

(٦) فى الأصل بعد هذا : « احتوزوا » .

فقاتلهم فقاتلوه ، ثم دَخلوا مدينة طنجة فقتلوا أهلها ، يقال إنهم قتلوا الصِّبيان ، والله أعلم .

ثم رجعوا يريدون إفريقية ، وثَب كلٌّ قوم من البربر على من يليهم ، فقتلوا وطَردوا ، فلما شُغل صاحب إفريقية ، وهو بِشْر بن صفوان ، بما حدث عليه ، وثب عبدُ الملك بن قطن المُحاربىّ، محارب فِهر ، على عُقْبة بن الحجّاج فَخَلعه ، ولا أدرى أَقتله أَم أَخرجه ، فملكها بقية إحدى وعشرين ، واثنتين وعشرين ، وثلاث وعشرين ، حتى دخل بَلْجُ بنُ بِشْر القُشيرىّ ، ثم الكَعبى ، بأَهل الشام .

وقد وَصفنا سبب دخوله فى أَحاديث تأْتى بعد هذا .

رَجع الحديث :

ومَضى موسى بن نُصير فقدم على سُليمان ، وقد مات الوليد سنة ستٍّ وتسعين ، وهو ابن ستٍّ وأَربعين ، وُلِدفى خلافة معاوية ، رحمه الله ، واستُخلف سليمان ، فابتدره طارقٌ ومُغيثٌ يشكوان إليه موسى بأَقبح الشَّكيّة ، وأَعلماه بما صنع بطارق فى المائدة ، وبُمغيث فى المَلِك القُرطبىّ ، وأَنه قد أَصاب جوهراً لم تَختزن الملوكُ بعدَ جَوهر فارس مِثْلَه .

ولما جاءَ موسى استقبله الخليفةُ سليمانُ وأَنَّبه (١) بفعله بطارق وبمغيث ، فاعْتَذر ببعض العُذر ، فقال له : المائدة ، فقال : هى ذه ، قال : هكذا كانت ناقصةً الرِّجل ؟ قال : نعم . فَحَوَّل طارقٌ يَدَه إلى قَبَائه (٢) فأَخرج الرِّجْلَ ، فَعلم سليمانُ كَذب موسى وصَدّق

(١) الأصل : « وابنه » ، تحريف .

(٢) القباء : الثوب والقميص .

طارقاً فى كل ما رَفع إليه ، وأمر بموسى فَحَبسه وأغرمه غرماً عظيما ، حتى سأل العربَ ، فيقال : إنّ لَخْماً جَعلت عنه فى إعطائها سبعين ألفاً ذهباً .

وذلك أنه كان تزوّج امرأةً من لَخم ، ولها ابنُ شَريف ، وهو غلام ، فكَفله وربّاه وأحسن اليه ، فشكرت (له) (١) ذلك لَخْمٌ .

ويُقال : إنه كان بينه وبين لخم صِهْر ، كان على أُخت حَبيب الّلخمىّ .

وعلى ابنه اجتمع أَهلُ الأَندلس حين قتلوا عبدَ العزيز بن موسى .

وهذا أَكثر ما بأَيدى الناس من مُؤالفته للخم .

خروج كلثوم بن عياض القشيرى إلى إفريقية

أَخرجه هشامُ بن عبد الملك أَمير المؤمنين فعسكر ، ونَدب أَميرُ المؤمنين معه الناس ، وجعل وَلِىَّ عهده إن هلك ، وكان شيخاً كبيراً ، ابنَ أَخيه بَلْجَ بن بشر ، فإن هلك بَلْجٌ فثعلبة بن سَلامة العاملىّ .

وأَخرج ثعلبةَ على جُند أَهل الأَردن ، وندب من أَجناد الشام ، من كُل جند ، ستة آلاف ، ومن أَهل قِنَّسرين ثلاثة آلاف ، فأَخرجه من الشام فى سبعة وعشرين أَلفاً .

ثم تحَرَّك بجيوشه ، وقد أَباح له الإِباحات ، ووضع له الأَطوياء (٢) فأَخرج كُل شاب يُرجى صبره وجَلَده ، ثم أَقبل إلى مصر فأَخرج من أَهلها ثلاثة آلاف ، فتَمّ بعثُه ثلاثين أَلفا من أَهل الديوان ، سوى من تبعهم من الناس .

(١) تكملة يقتضها السياق .

(٢) كذا ، ولعله يريد : ما يطوى ويستر .

وأَمر أَمير المؤمنين فى عهده إليه أَنْ يُطيع هارون القرنىّ ، مولى معاوية بن هشام ، ومُغيثاً ، مولى الوليد ، لمعرفتهما بالبلد ، وكَتب إلى عامل إفريقية : إنّ طاعتَك إلى كلثوم بن عمرو ، فأَخْرِجْ معه كلَّ مَن قِبَلك من الأَجناد وأهل التطوُّع .

وأَقبل كلثوم حتى نزل إفريقية ، فخرج إليه منها ، فيما يُقال (١)، بَشَرٌ كثير من أَهل إفريقية ، ومن كان معه من أَهل طَنْجة من العرب ، حتى تَم بعثه سبعين أَلفًا ، وجعل على رَجَّالة إفريقية مُغيثًا ، وجعل على خَيلها هارون القُرنىّ .

وبلغ البربر وميسرةَ إقبالُهم ، فجمعوا ، وقد وصفنا ما أَلَّبهم وحَضَّهم على الخروج .

وقد يقول مَن يطعن على الأَئمة : إنهم إنما خرجوا ضيقًا من سِيرِ عُمّالهم ، وإن الخليفة وولدَه كانوا يكتبون إلى عُمَّال طنجة فى جُلود الخِرفان العسليَّة ، فتُذْبَح مائة شاة ، فربما لم يُوجد فيها جِلْدٌ واحد .

وهو قول أَهل البُغض للأَئمة ، فإن كانوا صَدقوا فما بالُ التَّحكيم فشا فيهم ، ورَفْع المصاحف ، وحَلْق الرؤوس ، اقتداءً بالأَزارقة وأَهل النَّهروان أَصحاب الراسِبىّ عبد الله بن وهب ، وزَيد بن حصن .

فأَقبل ميسرةُ ، قد جَمع جُموعًا ليس يُحْصَى عددُها ، حتى لَقِى كلثومَ ابن عِياض ، بموضع يقال له : بَقْدُورة (٢) .

فلما رأَى كلثوم ماانْحاس عليه (٣) ، خَنْدَقَ . ثم أَتى هارونُ

(١) الأَصل : « فيما يقابل » .
(٢) كذا . ويقال فيه : نقدوره ، ونبدوره .
V. Slane Histoir des berbéres, tomo : I)
(٣) انحاس عليه ، أى : ما أَحاط به وغشيه .

ومغيثٌ ، فقالا له : خندق أَيها الأَمير وتلوَّم بالكَراديس(١)، وأَعطنا الخيل نخالفهم إلى قُراهم ودُورهم (٢) ، فَهَمّ بذلك ، حتى جاءَ ابنُ أَخيه ، وولى عهده بَلْجٌ ، وكان لايَعصيه ، فقال : لاتَفعل ، ولاتَرُعْك كثرةُ هؤلاءِ ، فإن أَكثرهم عُرْيَانٌ أَعزل لاسلاح لهم .

فناشبهم القتال ، وعلى خيله بَلْجٌ ، وعلى خيل إفريقية هارون القُرنىّ ، وعلى رجّالة إفريقية مُغيث ، ونزل كلثوم فى رجّالة أَهل الشام ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، وجعل بَلْجٌ يشدِّد عليهم بخيله ، فيستقبلونه بالجلود اليابسة فيها الحِجارة ، فَتنفر خيلُ أَهل الشام ، وعَمدوا إلى الرَّمَك (٣) الصَّعبة فعلَّقوا فى أَذنابها القِرب والأَنطاع اليابسة ، ثم وجّهوها نحو عسكر كُلثوم ، فنفرت الخيل ، ونادى الناس ، فنزل أَكثرهم ، وكان ذلك حاجة البربر لكثرتهم . وأَنهم لم تكن لهم خَيل تكافئ خيلَ المسلمين .

فلما نزلوا بقى بلْجٌ فى طائفة من خيله اثنى عشر أَلفًا ، ويقال : سبعة آلاف . وهو أَصح العددين .

فلما نزل الناس ، وقد اقتحمت الرُّوم التى وصفنا ، فانتقضت الصفوف ، وزحفت البربر ، وبَلْجٌ يشد عليهم ، ولاتكاد تَقدر عليهم خيله لِما كانت تُنَفَّر به ، وأَقبلوا راجعين حتى خالطوا صُفوف أَهل الشام ، وحتى لم تجد الخيل موضعًا تَشُد فيه .

---

(١) تلوم : تلبث وانتظر . والكراديس : الجماعات العظيمة من الخيل .
(٢) الأصل : « ودراريهم » .
(٣) الرمك : جمع رمكة ، وهى الفرس ، والبرذونة تتخذ للنسل .

فلما رأى بَلْجُ شدة قُحومهم(١)شدّ شدة اشتعال (الغضب) (٢) حتى شقّ جمعهم كلّه ، فذهب يَكُرّ . فاستقبلوه بالقتال . فصارت طائفة تُقاتل كلثومًا وطائفة تقاتل بَلْجًا . فحالوا بينه وبين الرُّجوع إلى عسكره . وصار فى دُبُر عسكر البربر يقاتله طوائف منهم قد كاثروه وزادوا . ومضى عُظْمُ الناس مع مَيسرة حتى لصقوا بكلثوم . فقُتل حبيبُ بن أبى عُبيدة القرشى ، وقُتل مُغيث . وقُتل هارون . وانهزمت خيل أهل إفريقية ورجالها ، وثَبت كلثوم ، فمرّ رجل من أهل الشام . فلقد أخبرنى من لاأتهم : أنه ضَرب على رأسه بسيف . فوقعت فروةُ رأسه على عَينيه ، فردّها ، ثم نادى فى أَصحابه . فذَبُّوا عنه ذبًّا ضعيفًا . وهو يقول (إن الله اشْتَرى من المؤمنين أَنفسهم وأَموالهم) (٣) ، يتلو الآية . ثم تلا (وماكان لِنَفس أن تموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجلا) (٤) .

فهو يقرأ هذه الآية حتى شدَّت البربر شدَّةً أُخرى ، فصُرع وقُتل أَصحابه ، ولم تؤخذ الراية بعدُ ، وانقصفوا انقصافة (٥) قبيحة لارَجعة لها ، وركب مِنهم مَن ركب منهزمًا إلى إفريقية ، وأتبعوهم يقتلونهم ويأسرونهم ، فثُلُث أَهل الجيش مَقتول ، وثُلُث منهزم ، وثلث مَأسور ، وبَلْجٌ يقاتل أَهل مُعسكرهم ، قد أَوقفهم وأَوقفوه ، وقد أَذْرع فيهم القتل ، ولكنهم مِن كثرتهم ، لايُحْصَى من قد قتل

---

(١) الأصل : « إقحامهم » ، وهوغير مسموع فى هذا المعنى . والقحوم ، مصدر : قحم ، إذا رمى بنفسه فى عظيمة .

(٢) تكملة يقتضيها السياق . (٣) التوبة : ١١٢ .

(٤) آل عمران : ١٤٥ .

(٥) الأصل : «انقصافا» . والانقصاف : ترك الشيء عجزا .

منهم، فهم(١) فى ذلك ، حتى إذا فرغوا بكلثوم وأصحابه رَجعوا إليه، فلما رأى مالاطاقة له به انهزم ماضيًا فى بلادهم ، وأتبعوه حتى اضطروه إلى البحر الأَخضر ، ولاذ بمدينة سَبْتة .

وقبل ذلك قد رام دُخول طَنْجة فلم يُمكنه دخولها ، وَجدها قد ضُبطت ، فمضى حتى أتى سَبْتة فدخلها ، وهى مدينة حَصينة ذات عُمران وخير كثير فيما حولها ، فجمع المعاش وضَمَّه إليها ، فلم يجد منه مافيه إلا شيئًا من بلاغ .

ثم أَرجعوا إليه جيشًا ، فخرج إليهم فهزمهم وقتلهم قتلا ذريعًا ، ثم بعثوا إليه جيشًا ، ففعل مثل ذلك ، حتى بعثوا إليه خمسة جيوش أَو ستة ، فلما رأُوا أَنه لايبقى له جيش سموه (٢) الأَرض وأَقفروا حوله مسيرة يومين، فجعل يخرج وأَصحابه فيُغيرون، حتى نفد المُغار(٢) وانقطع عنهم المعاش ، فجاعوا حتى أكلوا دوابَّهم ، ومكثوا فى المدينة حتى دخلوا الأَندلس .

وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه ، إن شاءَ الله .

فلما انهزم أَهل الشام ، وأَتت هزيمتهم(٣) وقليل من فَلّهم الشام ، عظم ذلك على هشام وأَهل الشام ، ونَدم على إخراج أَهل الشام ، وان لم يُخرج معهم أَهل العراق ، أَو غيرهم ، لئلا يؤتى جيشه من قلّة ، وإنما أُتوا من طريق القِلة ، ثم حلف لئن بقى ليُخرجنّ إليهم مائة أَلف كلهم يأْخذ العطاءَ ، ثم لَيُخرجن مائة أَلف ، ثم لَيُخرجن ، حتى إذا لم يبق غير

---

(١) الأَصل : «فهوى» . (٢) كذا

(٣) يريد : من انهزم منهم .

نفسه وغير بنيه وبينهم أَقْرع بينه وبينهم ، ثم أَخرج نفسه إن وقعت عليه القرعة .

فأَخرج إليهَم حنظلة بن صفوان الكلبي ، أَخا بشر بن صفوان ، صاحب إفريقية ، فى ثلاثين أَلفًا ، وأَمره أَلاّ يبرح من إفريقية حتى يأتيه رأْيه ، وخاف البربرَ أَن يَغلبوا على إفريقية ، فعجَّله إليها ليضبطها حتى يُمده بالرجال والأَموال ، ففعل حَنْظلة .

ثم أَخرج إليه جيشًا فيه عشرون أَلفًا ، وكانت وقعة كُلثوم وقَتْله وقَتْل من قُتل معه ، وكان ممن قُتل معه حبيب بن أَبى عبيدة ، سنة اثنتين وعشرين ومائة .

وأَقبل حنظلة فى سنة ثلاث وعشرين ومائة ، فنزل إفريقية ، ثم توافت إليه أَمداده ، وجَمع له مَيسرة فى سنة أَربع وعشرين ومائة ، فالتقى حنظلة والبربر ، وكان البربر قد جاسُوا (١) عليه بعسكرين عظيمين لايُوصف عددهما ، وكان هشام مريضًا ، وكان مرضه الذى مات فيه ؛ فحُدِّثت ، والله أَعلم ، أَنه جعل يقول : ياحنظلة ، ابدأ بإحدى الطائفتين قبل الأُخرى ، فظنوه يَهجُر(٢) .

فالتقى حنظلة والبربر ، فقَضى أَن بدأ بالعسكر الواحد ، ونزل بموضع يقال له : القرن ، فقتله(٣) ، ثم مضى إلى العسكر الآخر ، وكان نزوله بموضع الأَصنام ، فقتلهما (٣) ، فى عقب سنة أَربع وعشرين ومائة ، فكتب إلى هشام بالفتوح ، واستشاره فى الإقدام على بلد البربر ،

(١) الأصل : «جاشوا» ، بالشين المعجمة ؛ تصحيف . وجاسوا عليه : نزلوا.

(٢) يهجر : يهذى . (٣) كذا .

فأَتى كتابُه هشامًا وهو يجود بنفسه ، فمات هشام — رحمه الله — فى شعبان سنة خمس وعشرين ومائة .

ثم رجع الحديث إلى دخول بلج الأندلس

قال :

وأَقامَ بَلْجٌ بعد قتل عمه كلثوم قريبًا من سنة ، حتى أَكلوا دوابهم وأَكلوا الجلود وأَشرفوا على الهلاك ، وولى الأَندلس ابنُ قَطن ، وأَناروا(١) مرارًا ، حتى أَتتهم قشور الجزيرة (١) من الأَندلس .

وكتبوا إلى عبد الملك بن قطن يستغيثونه ، ويمتُّون إليه بطاعة أَمير المؤمنين والعربية ، فتغافل بهم ، وسَرّه هلاكهم ، وخافهم على سلطانه .

فلما رأَت عرب الأَندلس استغاثتهم وهلكتهم ، أَمدّهم رجل من لخم ، يقال له : عبد الرحمن بن زياد الأَحرم بقارَبين ، قد شحنهما بالشعير والإِدام ، فأَتاهم ذلك ، فنالوا منه ، ولم يبلغ منهم مبلغًا ، حتى أَشرفوا على الهلاك ، وحتى حَملت الأَرض ، فأَكلوا البقل والعشب .

فقُضِى أَن بربر الأَندلس ، لما بلغهم ظهور بربر العُدوة على عربها وأَهل الطاعة ، وثبوا فى أَقطار الأَندلس ، فأَخرجوا عَرب جِلِيقيّة وقتلوهم ، وأَخرجوا عرب أَسْتُرقة ، والمدائن التى خلف الدُّروب ، فلم يَرُع ابنَ قَطن إلا فَلُّهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأَطراف كلها إلى وسط الأَندلس ، إلا ماكان من عرب سَرَقُسطة وثَغرهم ، فإنهم كانوا أَكثر من البربر ، فلم يَهِج عليهم البربر ، فأَخرج عليهم عبد الملك جيوشًا ، فهزموها وقتلوا العرب فى الآفاق ، فلما رأَى ذلك وخاف أَن يَلقى ما لقى أَهلُ طَنْجة ، وبلغه إعداد البربر له ، لم يَر شيئًا أَعزَّله من

(١) كذا .

الاستمداد بأَهل الشام ، فبعث إليهم السُّفن فأَدخلهم أرسالاً ، وبعث إليهم بالأَطعمة والأُدم ، واشْترط عليهم أَن يُعطوه من كل جند من قوادهم عَشرة رُهن ، يضعهم فى الجزيرة فى البحر ، فإذا فرغوا له فى الحرب جَهَّزهم وحملهم إلى إفريقية .

فرضوا بذلك وأَعطوه عهدًا ، أَو اتخذوا عليه عهدًا ، أَن يَحملهم إلى إفريقية جُملة لايُفرِّقهم ولايعرضهم للبربر (١) ، ومعهم فى جملتهم عبد الرحمن بن حَبيب بن أَبى عُبيدة الفِهرىّ . وقد قُتل أَبوه حبيب بنَقْدورة (٢) ، فأَدخلهم فى سنة ثلاث وعشرين وأَخذ رُهنهم ، وأَقرّها بجزيرة أُم حكيم فى البحر ، وهم قد هَلكوا وعَرُوا ، فلم يكونوا يستترون إلا بالدُّروع ، حتى نزلوا الجزيرة بالأَندلس ، فوجدوا بها جلودًا مدبوغة كثيرة ، فقطعوا منها المدارع ، ثم أَقبلوا إلى قُرطبة ، فكسا ابنُ قطن خيارهم ، أَعطاهم كلهم عطاء ، فلم يكن فيه ما يُغنيهم .

واستقبلهم عرب بلد الأَندلس ، وهم ملوك ، وكسا كل رجل من خيارهم خيار عشيرته ، وأَفضل عليهم الناس حتى لبسوا وشبعوا .

وكانت قد رأَّست البربر بالأَندلس على أَنفسهم ابن هدين (٣) ، وحشدوا من جِليقيّة ، واسْتُرقة (٤) ، ومارِده ، وطَلَبيرة ، فأَقبلوا فى شئ لايُحصيه عدد ، حتى أَجازوا نهرًا ، يقال له : تاجة ، يريدون عبد الملك ابن قَطن ، وأَخرج إليهم عبد الملك ابنيه ، قطنًا ، وأُمية ، فى عرب الشام ، أَصحاب بَلْج ، وعرب البلد .

---

(١) الأصل : « البربر » .
(٢) فيما مر (ص : ٣٧) : « بقاسورة » .
(٣) كذا .
(٤) الأصل هنا : « واستورقه » .

فلما بلغ البربرَ إقبالُ الجيوش إليهم حَلقوا رؤوسهم، اقتداء بميسرة، ولكيلا يَخفى أمرهم، وليضربوا ولايختلطوا، ثم أَقبلوا إلى مدينة طُليطلة، وصمد ابن قطن بمن معه، وأُمية بمن معه، صَمْدَهم، فالتقوا فى أَرض طُليطلة على وادى سَليط، فاقتتلوا قتالا شديدًا، وأَقبل أَهلُ الشام عليهم حَنِقين، فقاتلوا قتال مُستبسلين، فمنحهم الله أَكتاف البربر، وقتلوهم قتلا ذريعًا أَفنوهم به، فلم ينج منهم إلا الشريد.

فركب أَهل الشام ولبسوا السلاح، ثم فَرَّقوا الجيوش فى أَرض الأَندلس، فقتلوا البربر حتى أَطفئوا جمرتهم، فلما فرغوا كرّوا قافلين إلى قُرطبة، فقال لهم عبد الملك: اخرجوا، قالوا: نعم، أَخرجنا إلى إفريقية، فقال: ليست لنا صناعة تَركبونها معًا، وقد صارت لكم خُيول ورقيق وكُسًا، ولكن اخرجوا أَرسالاً إلى إفريقية، قالوا: لانخرج إلا مجتمعين، قال: فاخرجوا إلى سَبْتة، قالوا له: تُعَرّضنا لبربر طَنْجة، اقذف بنا فى لُجة البحر أَهونُ علينا.

فلما رأَوا مايريد بهم وثبوا عليه فأَخرجوه من القصر وأَدخلوا بَلْجًا صاحبهم وبايعوا له، ونزل ابن قطن دارًا، وهى التى يقال لها: دار أَبى أَيوب، وهَرب ابناه، فلحق أَحدهما بماردة، ولحق الآخر بسَرقُسطة.

فأَقاموا أَيامًا يُجيلون رأيهم، واختلط أَمر الناس بالأَندلس، وأَمسك والى الجزيرة عن إمداد الرُّهن الذين فى جزيرة أُم حكيم بما يُعيشهم من الطعام والماء، والجزيرة التى هم فيها لاماء لها، وهى جزيرة أُم حكيم، فمات من الرُّهن الذين فى جزيرة أُم حكيم رجل من أَشراف أَهل الشام.

فلما بعث بَلْجٌ فى إخراجهم وأَقبلوا إليه، شَكَوْا ماركبهم به ابن قطن، وقَتَله صاحبهم بالعطش، وقالوا: أَقِدْنا منه، فقال لهم بَلْجٌ:

ويحكم ! لاتفعلوا ، فإنه رجل من قريش ، وكان موت صاحبكم على شبه الخطأ ، ولكن أمهلوا حتى نرى ماتَصير إليه الأُمور .

فثارت اليمن بكلمة واحدة فعَسفوا بَبلْج(١)، وقالوا : أَحميتَ بمُضر؟

فلما خاف فسادهم وتفرق كلمتهم ، أمر به فأُخرج ، وهو شيخ كأَنه فَرخ نعامة ، وهو ابن تسعين سنة أَو أَكثر ، حضر الحَرّة(٢) مع أَهل المدينة ، ومنها فَرّ(٣) إلى إفريقية ، فأَخرجوه وهم ينادونه : يافال ، فَرَرْتَ من سيوفنا يوم الحَرّة ثم عرضتنا لأَكل (٤) الكلاب والجلود طلبًا بثأر الحَرّة ، ثم بعْتَ جند أَمير المؤمنين .

فأَخرجوه إلى رأْس القنطرة فقتلوه وصلبوه عن يسار الطريق ، وصلبوا عن يمينه خنزيرًا ، وصلبوا عن يساره كلبًا .

فأَقام يومًا ، ثم إن موالى له من البربر من أَهل المَدوُر (٥) ، طَرقوه فسرقوا خشبته ، فكان المكان يقال له : مَصْلَب عبد الملك بن قَطن .

حتى ولى يوسف بعد ذلك فبنى فيه أُمية بن عبد الملك مسجدًا ، فانقطع الاسم وقالوا : مَسجد أُمية ، وهُدم ذلك المسجد بعد ذلك يوم هاج أَهلُ قرطبة على الحكم بن هشام ، وصار موضعه برَاحًا ، فانقطع عنه الاسمان : اسم المصاب ، واسم المسجد ، إلا من عرف ذلك .

(١) الأصل : « بلجن ».

(٢) الحرة : حرة راقم ؛ إحدى حرتى المدينة ، وهى الشرقية ، وبها كانت الموقعة المشهورة فى أيام يزيد بن معاوية ، وكانت بينه وبين أهل المدينة (معجم البلدان : ٢ : ٢٥٢ — ٢٥٣) .

(٣) الأصل : « فال » ، ويبدو أنها محرفة عما أثبتنا .

(٤) الأصل : « أكل ».

(٥) المدور ، بفتح فضم ، كذا ضبط وضبط قلم فى معجم البلدان : حصن مشهور بالأندلس ، (معجم البلدان : ٤ : ٤٥٠) .

فلما بلغ ابنيه ماكان ، حَشَدا من أَقصى أَرْبُونة (١) ، وراجعا أَهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر ؛ فرضيت البربر أَن تَنال ثأْرها من أَهل الشام ، فإِذا فرغوا كان لهم فى أَهل البلد رأى .

فأَقبل ابنُ قطن وأُمية ومعهما عبد الرحمن بن حَبيب ، وكان فى أَصحاب باج ، فلما صُنع بعبد الملك ماصُنع انحازعنه وخرج عن دعوة أَهل الشام .

وأَقبل معهم عبدُ الرحمن بن علقمة اللَّخمىّ ، صاحب أَرْبُونة ، فأَقبلوا فى مائة أَلف أَو يزيدون ، راجعين إِلى بَلج وأَصحابه بقُرطبة ، وقد رحل فَلٌّ (٢) كثير من أَهل الشام كانوا فى القرى والجبال ، ومن إفريقية ، فلم يقْووا على الرُّجوع إِلى الشام حتى صاروا فى اثنى عشر أَلفًا ، سوى عبيدٍ كثيرٌ ، اتخذهم من أَهل البلد والبربر ، حتى بلغوا من قُرطبة على بريَديْن إِلى موضع ، يقال له : أَقْوه برطورة ، فخَرج إِليهم بَلْجٌ فى أَصحابه فقاتلهم ، فلم يقوموا له ولم يصبروا إِلا صبرًا يسيرًا ، إِلا أَن عبد الرحمن بن عاقمة اللَّخمىّ ، وكان يُعد فارس أَهل الأَندلس ، قد قال لهم : أَرونى بَلجًا ، فوالله لأَقتلنَّه أَو لأَموتن دونه . فأَشاروا له إِليه وقالوا : صاحب الفرس الأَبيض ، فشدّ بخيل الثَّغر ، فانفرج أَهل الشام عن بَلج والرايةُ بيده ، فضربه بالسيف على رأْسه ضربتين ، ثم إِن الحُصَين ابن الدَّجْن العُقَيلىّ شدَّ على ابن علقمة فضربه ضربات بالسيف ، وجَعله بعدُ من باله (٣) .

(١) أربونة ، بفتح أوله ويضم ثم السكون وضم الباء الموحدة وسكون الواو وهاء : من أرض الأندلس ، وهى ما تسمى الآن : لشبونه ، عاصمة البرتغال (معجم البلدان : ١ : ١٩٠ ، صفة جزيرة الأندلس : ١١ ، نفح الطيب : ١ : ١٢٧) .

(٢) الأصل : «فلال» . والفل ، وهم القوم المنهزمون ، يقال للواحد والجمع .

(٣) كذا : والبال : والخاطر .

فكان عبدُ الرحمن لايتف بموضع إلاّ قاتله حُصين بخيل قِنَّسرين. فقطع عادِيَته وشغله بنفسه . وشدّ عليه شدات يُلحقه بكل شدة بالصفوف ، ويَضربه فى عامّتها . إلا أنه فارس نجدة . معه جودة الاتقاء . وعليه سلاح كريم . لايَحِيك (١) فيه سيف حصين (٢) . حتى انهزموا هزيمة قبيحة ، وأتبعوهم يقتلونهم ويأسرونهم .

ثم رجعوا (٣) . فمات بَلْجٌ إلى أيام يسيرة . يقال : من ضربتى ابن علقمة . ويقال : بل أَجَلٌ حَضَره ، والله أعلم .

وولّى أَهلُ الأَندلس ثعلبة بن سلامة العاملى ، فجمع له أَهلُ البلد، العربُ والبربرُ ، جمعًا بماردة ، فخرج إليهم ، فجاسوا (٤) عليه بمالاطاقة له به ، وقاتلهم قتالا شديدًا ، فلم يُغْنِ مغنًى ، فلما رأى ذلك اعتصم بمدينة ماردة ، وبعث إلى خليفته بقُرطبة أَن يتحمَّل إليه ببقية أَصحابه لمُناجزة أَهل البلد ، فبينا هو (٥) محصور ، قد نَزل أَهل البلد من البربر والعرب ، وجُلّهم البربر ، على ماردة ، إذ حَضَرهم عيدُ فِطر أَو أَضحى ، فأَبصر ثعلبة غِرَّتهم وانتشارهم ، وكثرُوا فانتشروا ، فلما كان صبيحة العِيد خرج عليهم فَهزمهم وقتلهم قتلاً ذريعًا ، ثم سَبى ذراريهم .

---

(١) لا يحيك فيه : لا يثبت ولا يرسخ .

(٢) لعلها : « متين » .

(٣) الأصل : « راجعوا » .

(٤) جاسوا ، أى وطئوا . وفى الأصل : « جاشوا ، بالشين المعجمة ، ولا معنى لها هنا .

(٥) الأصل : « فبيناه ».

ولم يكن بَلْجٌ قَبْله تعرَّض للذُّرية بالسِّباء ، فأَقبل من السبي بعشرة آلاف أَو يزيدون ، حتى نزل المُصَارة(١) بقُرطبة ، وقد بلغ صاحب إفريقية مافيه أَهل الأَندلس ، ووفد إليه من صالحى أَهلها ، وكُتب إليه أَن أَغِثْنا بِوَالٍ يجمعنا ويَأخذ بَيْعتنا له ولأَمير المؤمنين ، حتى يصير الشامُ والبلدان على دَعْوة واحدة ، وقد أَفنانا القتل وخِفْنا العدوَّ على ذرارينا .

فبينا ثعلبة نازل بالمُصَارة يبيع ذَرارى أَهل البلد ، وسعهم (٢) فى رحالهم .

ولقد بلغنا أنه باع أَشياخهم فيمن يَنْقُص بهم ، لقد قيل : إنه صاح على ابن الحسن ، رجلٍ كان بالأَندلس من أَهل المدينة ، وعلى الحارث بن أَسد من جُهينة من أَهل المدينة ، فقال : مَن يَخْسر على هذين الشيخين ؟ فقال قائل : أَحدهما عندى بعشرة دنانير ، فقال الصائح : من ينقص ، فلم يزل يَصيح : من ينقص ، حتى باع أَحدهما بكلب والآخر بِعَتُود (٣) .

فبيناهو(٤) على هذا إذ جاءَهم أَبو الخطَّار الحُسام بن ضِرار الكَلبىّ ، واليًا من قِبَل حَنْظَلة بن صَفوان ، والخليفة بعدُ الوليدُ بن يزيد ، وهم نزول بالمُصَارة ، فسَمعوا وأَطاعوا ، وكان رجلاً من خيار أَهل الشام من أَهل دمشق ، فَرَضى به الشاميون والبلديون ، فأَطلق الأَسرى والسَّبى ،

(١) الأصل ، هنا : « المسارة » . وانظر النفح (٣ : ٣٧) .

(٢) لعلها : « وضعهم » .

(٣) العتود : من أولاد المعزى : وهو ما أتى عليه حول .

(٤) الأصل : « فبيناه » .

فسُمِّى ذلك العسكر : عسكر العافية ، وصارت الكلمة جامعة ، وأفلت ثعلبةُ بن سَلامة ، وعثمان بن أَبى نِسْعة ، وعشرة من قواد الشام ، وأَمَّن ابنى عبد الملك بن قَطن ، فاستقامت حال الناس بالأَندلس ، وأَنزل أَهل الشام فى الكُور .

* * *

ذكر دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس
والسبب الموجب لذلك ، وما آلت إليه أحواله ، مختصراً إن شاء الله تعالى .

لمَّا كان من أَمر مروان بن محمد — رحمه الله — ماكان ، وانصرم أَمر بنى أُمية بالمَشرق ، وتغلَّب على ملكهم بنو العبَّاس ، وقُتل مروان فى سنة اثنتين وثلاثين ، فسِير برأْسه إلى السَّفاح (١) ، ثم سِير به إلى أَبى العباس ببغداد ، وهو مُعسكر بها .

وتتبع السفَّاح بنى أُمية حيث كانوا يقتل ويمثِّل ، أَخذ أَبان بن معاوية فقطع يده ورِجْلَه ، ثم طِيف به فى كُوَر الشام يُنادَى على رأْسه : هذا أَبَانُ بن معاوية فارسُ بنى أُمَية ، حتى مات .

وقَتلوا النِّساءَ والصِّبيان ، ذَبحوا عَبْدة بنت هشام بن عبد الملك ذَبْحًا ، وذلك أَنهم سأَلوها عن كُنوزٍ وجَوهر ، فلم تَرُدَّ عليهم كلمة ، فذبحوها .

وهَرب عنهم وجوهٌ من بنى أُمية لهم أَسماء وأَقدار ، وتَغيَّبوا عند

---

(١) ظاهر أنه يريد : صالح بن على ، عم السفاح ، وسيأتى ذكره بعد قليل .

العرب وأفْناء الناس (١) ، فلم يجدوهم ، وكان فيمن تغيَّب عبد الواحد ابنُ سليمان ، والغَمْر بن يزيد ، وغيرهما .

فلم يَرَوْا أنهم صنعوا شيئًا ، وتوثَّقوا من سُليمان بن هشام خوفًا أن يُبصر مكيدتهم فيهرُب ، فأظهروا النَّدم على ماكان ، بزعمهم ، فأمَّنوا مَن بَقِى ، ورُفع السيف ، وكتب (٢) إليهم : أن أمير المؤمنين قد نَدم على ماكان فى بنى أمية وأحبّ البَقاءَ ، وقد أمرنى بتأْمينهم فقد أمَّنتهم ، فلا أعلمنَّ أحدًا يعرض لهم بمكروه .

ونادى مناديه بذلك فى كُور الشام ، وفى عسكره وهو بكَسْكر ، فلما شاع ذلك بَعثوا رُسلاً ، فاستأْمن منهم بضعًا وسبعين رجلاً ليس منهم من غيرهم إلا صهر لهم من كلب ، ورجل من مواليهم ، وكان فيهم : عبد الواحد ، والغَمر ، والأَصبغ بن محمد بن سعيد ، وجماعة ممن لاأُسميهم ، فجعلوا كلما جاءَهم رجل منهم قَرَّبوه وأنزلوه وأعطوه عهودًا مستأْنفة ألا يَرَوْا مكروهًا ، حتى يلحقوا بأَمير المؤمنين ، وإنَّ أَمير المؤمنين قد أَمَّنهم وأراد الإبقاءَ عليهم .

فأَخبرنى من أثق به من المشايخ أَن الأَمانات بُسطت لهم حتى تداعى (٣) كلُّ مَن هرب ، وكان يحيي بن معاوية بن هشام ساكنًا فى

---

(١) أفناء الناس : أخلاطهم .

(٢) كذا ، ولعل فى الكلام سقطا ، وظاهر أنه يريد صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، عم السفاح والمنصور ، وسيأتى ذكره بعد قليل . أو عبد الله بن على ، وهو الآخر عم السفاح والمنصور ، وكانت له ولاية الشام أيام السفاح .

(٣) تداعى : أقبل .

الموضع الذى عسكر فيه صالحُ بن على ، على سبعة أميال ، فثبت فى منزله ولم يضطرب مع من اضطرب فى العسكر منها ، وقال : إذا حَضر فَصْلُ أمرهم غشيتهم ، لقُربه منهم . فأَقام الناس ينتظرون مايكون ، فطال ذلك ، حتى أَقبل المدنىّ والعراقىّ والمصرى من بنى أُمية ، فبعث يحيى ابنُ معاوية رسولاً ينظر مايكون ، فوافق القوم يُقتلون . فرجع مسرعًا ، فسُقط فى يديه فلم يَتَّفق له هرب ، حتى قَرُبت الخيل فى تلك القُرى القريبة فغُشى فقتل ، وكان معه الأَمير عبد الرحمن بن معاوية فى القَرية ، وكان يومه ذلك غائبًا فى الصيد ، فوقع الخبرُ عليه فى جوف الليل فهرب ، وأَوصى أَن يُتْبَع بولده أَبى أَيوب ، وأُختيه : أُم الأَصبغ ، وأمة الرحمن .

قال : فلما اجتمع بنو أُمية عند السفَّاح (١) قَعد لهم وأَدخلهم على نفسه فى سُرادق له ليرساهم بزعمه إلى أَمير المؤمنين ، فلما توَافوْا ميَّز منهم عبد الواحد بن سليمان فأَجلسه قريبًا منه ، مكافأَة باليد التى كانت عندهم ، فجَعل يذكرها له ويرجِّيه حسن رأْيه فيه . والأَحراس وقوف عليهم عَمد الحديد ، فأَشار إليهم ، وقال : دَهْدِهُوا رؤوسهم ، فوُضعت عليهم فشدخوا ، ثم قال لعبد الواحد : لاخير لك فى البقاءِ بعد قومك وسُلطانك ، وقد أَبرزناك أَن تُقتل بالسيف ، وأَمر به فقُتل صَبْرًا (٢) .

---

(١) كذا وظاهر أنه يريد صالح بن على ، عم السفاح ، (وانظر الحاشية : ٢ ص ٤٩) .

(٢) صبرا ، أى يحبس ويرمى حتى يموت .

قال : وفعل ذلك بالغمر بن يزيد ، وبعث برؤوسهم إلى أبي العبَّاس ، فلما جاءَته أمر بضرب (١) عُنق سليمان بن هشام .

قال : وكان بقايا بنى أُمية لما سمعوا الأَمان تراجعوا إلى منازلهم فى أَقاصى الكُور — تَمَّت بهم عدة قتلى نهر أَبى فُطْرس(٢) ، وهم ثلاثة وسبعون ، وإياهم عنى حفصُ بن النعمان :

أَين أَصحابُ العطايا منهمُ والبهاليلُ بنو الصِّيد النُّجُبْ
مَن يُرِد يسأَل عنهم فهمُ حيث . . . (٣) من فوق الخُشب

ثم اشتدَّ الطلب على بنى أُمية فهربوا فى الآفاق ، وكانوا يسمعون فى الرِّواية (٤) أَن مُستراحهم بالمغرب ، فنزع أَكثرُهم إلى إفريقية ، فنزع إليها السُّفيانى الثائر ، وابنا الوليد بن يزيد : العاصى ، وموسى ، وحبيب بن عبد الملك بن عمرو بن الوليد : وقبل ذلك نزع (٥) إليها جُزىّ بن عبد العزيز بن مروان ، وعبد الملك بن عمر بن مَروان ، إذ (٦) قُتل الخليفة مروان .

فتوافى (إلى) (٧) إفريقية بشر كثير ، وكان واليها عبد الرحمن

(١) لعلها : بصلب .
(٢) نهر أبى فطرس : موضع على اثنى عشر ميلا من الرملة ، وكانت به وقعة عبد الله بن على مع بنى أمية سنة ١٣٢ ﻫ
(٣) بياض بالأصل .
(٤) الأصل : الروية .
(٥) الأصل : « ما نزع » .
(٦) أى : حين .
(٧) تكملة يقتضيها السياق .

ابن حبيب بن أَبى عُبيدة الفِهرىّ ، (١) فلم يكره نزوعهم إليه ، ولجأَ إليها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ـ رحمه الله ـ وكان بدء حديثه باختصار أنه لما أَمن أَهلُ أَبى فُطْرُس ، وكان غلامًا حدَثًا ، هاج أَمرُ المُسوّدة ، وهو ابنُ سبع (٢) عشرة سنة رجع إلى منزل له بدَيرحنًّا من كورة قِنَّسْرين ، فأَقام به وجمع بعض إخوانه وعياله ، وكان قد وُلد له : سليمان ، المكنَّى بأَبى أَيوب ، وكان مولده سنة ثلاثين فى سُلطان مروان .

فأَخبرنى من سمع عَبد الرحمن بن معاوية يحدِّث طائفةً عن بدء (٣) حديث هربه ، قال : لما أَمنَّا وشاع ذلك ركبت متنزِّها فوُقع بهم وأَنا غائب ، فرجعت إلى منزلى فنظرت فيما يُصلح أَهلى ويُصلحنى ، وخرجت حتى صِرْتُ فى قَرية على الفُرات ذات شَجر وغياض ، وأَنا والله ما أُريد إلا المَغرب ، وكنت قد بلغتنى رواية ، كان والدى ـ رحمه الله ـ قد هلك فى زمن جَدّى ـ رحمه الله ـ وكنت صبيا إذ هلك ، فأَقبل بى وبإخوتى إلى الرُّصافة إلى جدّى ، ومَسلمة بن عبد الملك ـ رحمه الله ـ لم يَمُت بعد ، فنحن وقوفٌ ببابه على دوابنا إذ (٤) سأَل مسلمةُ عنا ، فقيل : أَيتامُ معاوية ، فاغرورقت عيناه بالدَّمع ، ثم دعا بنا الاثنين فالاثنين ، فأَقبل يدعو بنا حتى قدمتُ إليه ، فأَخذنى وقبَّلنى ، ثم قال للقيِّم : هاتِه ، فأَنزلنى عن دابتى وجعلنى عن أَمامه ، وجعل يقبِّلنى ويبكى

---

(١) الأصل : « بدو » .

(٢) الأصل : « سبعة » .

(٣) الأصل : « من بدو » .

(٤) الأصل : « إذا » .

بكاءً شديدًا ، فلم يَدْعُ بعدى من كان أَصغر من إخوتى وشغل بى فلم يُفارقنى ، فأَنا أَمامه على سرجه حتى خرج جدّى ، فلما رآه قال : ماهذا يا أَبا سَعيد ؟ فقال : بُنى لأَبى المُغيرة ، رحمه الله ، ثم دنا من جدِّى فقال له : تدانَى الأَمر ، هو هذا ، قال : أَهو ؟ قال : أَى والله ، قد عرفتُ العلامات والأَمارات بوَجهه وعُنقه .

قال : ثم دُعى القَيِّم فدُفِعتُ إليه ، وأَنا ابن عَشر سنين يومئذ أَو نَحوها ، فكان جدِّى ، رحمه الله ، يُؤثرنى ويتعاهدنى بالصِّلة والبَعْثة التى فى كُل شهر ، وكنا بكورة قِنَّسْرين ، بيننا وبينه مسيرةُ يوم ، حتى مات،ومات مَسلمة أبو سعيد قبله بسنتين ، فكانت تلك فى نفسى مع أَشياء كانت تُذْكَر .

فإنى لجالس فى القرية فى دارٍ كنَّا فيها ، ولم يبلغنا بعدُ إقبالُ المسوّدة ، فكنت فى ظُلمة البيت وأَنا رَمد شديد الرَّمد ، ومعى خِرْقة سوداءُ أَمسح بها قَذَى عينى ، والصبىّ سُليمان يلعب ، وهو ابن أَربع سنين أَو نحوها ، إذ دخل من باب البيت فترَامى فى حِجرى ، فدفعتُه لِمَا كان بى ، ثم ترامَى وجعل يقول مايقول الصِّبيان عند الفزع .

قال : فخرجتُ فإذا أَنا برَايات مُطلَّة ، فلم يَرُعْنى إلا دخولُ أَخى فلان ، فقال : ياأَخى ، رأَيتَ المسوِّدة ؟ وكنتُ لمَّا فعل بى الصبىُّ مافعل قد خرجتُ فرأَيتهم لم أُدرك شيئًا أَكثر من دنانير تناولتها ، ثم خرجت أَنا والصبىّ أَخى ، وأَعلمتُ أُختىّ (١) : أُم الأَصبعْ ، وأَمة الرحمن ، بمتوجَّهى ، وأَمرتـهُما أَن يُلحقـنى غلامى بما يُصلحنى إن سَلِمتُ .

---

(١) الأصل : « أخواتى » .

فخرجت حتى اندسَسْت فى موضع ناءٍ عن القرية ، وأقبلوا فأَحاطوا بالقرية ثم بالدَّار ، فلم يجدوا أثرًا ، ومَضينا حتى لحقنى بَدْرٌ ، ثم خرجت حتى أَتيتُ رجلاً على شاطئ الفُرات ، وأَمرته أن يبتاع لى دوابَّ ومايُصلحنى ، فأَنا أَرقُب ذلك إذ خرج عبدٌ له أَو مولًى ، فدَلّ علينا العاملُ ، فأَقبل إلينا ، فوالله ماراعنا إلا جَلَبة (١) الخيل إلينا فى القرية ، فخرجنا نشتدّ على أَرجلنا ، وأَبصرتنا الخيلُ فدخلنا بين جنان (٢) على الفرات ، واستدارت الخيلُ ، فخرجنا وقد أَحاطت بالجنان(٣)، فتبادرنا وسَبقناها إلى الفُرات فتَرامينا فيه ، وأَقبلت الخيل فصاحوا علينا : لابأس عليكم ، فسبحت وسبح الغلام أَخى ، فلما سِرْنا ساعةً سبقْتُه بالسباحة وقطعتُ قدر نصف الفرات ، فالتفتُّ لأَرفق وأَصيح عليه ليلحقنى ، فإذا هو والله لما سَمع تأمينهم إياه وعَجِل خاف الغرق ، فهرب من الغرق إلى الموت ، فناديتُه : أَقبل ياحبيبي إلىّ ، فلم يأذن الله بِسَماعى ، فمضى ، فمضيتُ حتى عبرتُ الفرات ، وهَمَّ بعضُهم بالتجرد ليسبح فى إثرى ، ثم بدا لهم وأَخذوا الصبىَّ فضُربت رقبته وأَنا أَنظر ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، رحمه الله .

قال : ثم مضيتُ .

فهذا حديثه رحمه الله .

ومن حديث غيره أنه مضى حتى أَتى كُورة فلسطين ، وقد أَلحقت

---

(١) الأصل : « بجلبة » .

(٢) جنان : جمع : جنة ، وهى الحديقة ، وفى الأصل : « أجنة » .

(٣) الأصل : « بالأجنة » .

به أخته ، أمُّ الأَصبغ ، بدرًا غلامه ، وسالمًا أَبا الشُّجاع غلامها ، وكانت شقيقته ابنة أُمه ، ومع المولَيَيْن نفقة وشئ من جوهر ، فلَحقاه حيث لحقاه لا أَدرى ، ومضى حتى أَتى إفريقية ، وقد توافى بها جماعةٌ من أَهل بيته .

وكان عند عاملها ابن حَبيب يهودىٌّ كان قد صحب مَسلمة بن عبد العزيز ، فكان يقول : يَغلب على الأَندلس رجلٌ من أَبناء الملوك ، يقال له : عبد الرحمن ، له ضفيرتان .

فكان ابن حبيب قد أَرسل ضفيرتَين رجاءً للرواية ، فكان اليهودىّ يقول له : لستَ أَنتَ من أَبناء الملوك ، فكان يقول : بلى والله .

فلما جاءَه عبدُ الرحمن ، ونظر إليه فإذا هو ذو ضفيرتين ، فدعا اليهودىّ وقال له : ويحك ! هذا هو ، وأَنا قاتلُه . قال له اليهودىّ : والله لئن قتلتَه ماهو هو ، ولئن تركتَه إنه لهو .

ثم تجنَّى على ابنى الوليد بن يزيد فقتلهما ، وأَخذ مالاً مع إسماعيل ابن ريَّان بن عبد العزيز ، وغلبه على أُخته فتزوجها ، وأَراد عبدَ الرحمن ابن معاوية ، فأَتاه رجالٌ فأَنذروه فرفع رأْسه ، فخرج هو وعامة أَصحابه الذين بقوا منهم فافترقوا فى بلاد البربر .

فسار عبدُ الرحمن بن معاوية إلى موضع يُقال له : بارَى ، فنزل فى قبيلة يقال لها : مِكناسة ، فكان له عنده مضيق (١) يطول ذِكْره .

ثم خرج من عندهم حتى بلغ البحر فنزل بسَبْرَة ، فكان فى نِفْزة ،

---

(١) كذا .

وهم أَخواله ، كانت أُمّه نَفْزيّة ، وبَدْرٌ معه ، وكان سالمٌ قد فارقه بإفريقية لسبب كان ، وذلك أَنه كان مُحْتميًا (١) عاتبا ، فبيناهو (٢) قاعد إذ دخل على عبد الرحمن بعضُ بنى عمه فصاح به ، فلم ينتبه فأَمر بماءٍ فصُب على وجهه ، فامتعض ورَجع إلى الشام .

وكان أَبو الشُّجاع عالمًا بالأَندلس ، وذلك أَنه كان دخلها مع ابن نُصير أَو بعده ، وغزا صوائف (٣) الأَندلس ، فشق على ابن معاوية فراقُه ، فرجع إلى أُم الأَصبغ بالشام .

(ثم رجع الحديث إلى ولاية أبى الخطار الأندلس)

قال : فأَقام عليه أَربع سنين وستة أَشهر إلى تاريخ ثمان وعشرين ومائة ، وكان قد قَدم الأَندلس فى أَمداد أَهل الشام الصُميَّل بن حاتم ابن شَمِر بن ذى الجَوشن ، وكان أَصله (٤) من الكوفة ، فلما قَتل جدُّه شمرٌ الحسينَ بن على ، رحمه الله ، قَتل المختارُ شمرًا بعد ذلك ، فارتحل ولده عن الكوفة فصاروا بالجزيرة ، ثم لما جُنِّد جُنْد قِنسرين صار الصُّمَّيْل فيه ودَخل الأَندلس لسبب دَم أَصحابه ، فرأَس بالأَندلس ، ودانت له قَيْس بالأَندلس ، وفاقهم بالنَّجدة والسخاء ، فاغتم ، بذلك أَبوالخطار ، ودَخل عليه يومًا وعنده الجُند ، فأَحبَّ كَسْره ، فلُكز وشُتم ، فخرج عنه فأَتى داره وبَعث إلى خِيار قومه فشَكا إليهم مالَقى ، فقالوا

---

(١) يريد : غاضبا .

(٢) الأصل : « فبيناه » .

(٣) كذا . والصوائف جمع صائفة ، وهى غزوة الصيف .

(٤) الأصل : « أصل » .

له : نحن لك تَبَعٌ ، فقال : والله ما أُحبُّ أن أُعرّضكم (١) للقُضاعيّة (٢) واليمانيّة ، ولكن اللُّطف ، ندعو بالله مَرج راهط (٣) ، وندعو لَخْمًا وجُذاما ، وندخل منهم رجلا نُقدِّمه يكون له الاسم ولنا الخطّ .

قال : فكتبوا إلى ثَوابة بن سَلامة الجُذامى ، وكان من أَهل فلسطين ، ثم ساروا حتى وفدوا عليه فأَجابهم ، وأَجابتهم لَخم وجُذام ، فبلغ ذلك أَبا الخطَّار فغزاهم فى جماعة أَهل الأَندلس ، فلقيهم ثوابةُ بناحية نهر شَذُونة فانهزم أَبو الخطَّار وأُسر وقُتل قليل من أَصحابه ، ثم رُفع السيف عنهم ، وأَقبل ثوابة بن سلمة حتى دخل قَصر الأَندلس وأَبو الخطَّار معه فى قيوده .

فَولِى ثوابةُ سنةً ثم مات فى سنة تسع وعشرين ومائة ، فاجتمع أَهلُ الأَندلس على يوسف بن عبد الرحمن بن عُقبة بن نافع الفهرىّ بعد اختلاف شديد ، إلا أنه لم تكن فى ذلك حَرب ، كان يحيى بن حُريث الجُذامى ، من أَهل الأردن ، قد دعا إلى نفسه ، فقال ثوابةُ بن عمرو : وأَنا أَولى بهذا الأَمر ، فلم يزالوا يتراوضون الأَمر بينهم حتى اجتمعوا على يُوسف ، بأَن تركوا كورة ريَّة ليحيي بن حُريث ، وبها سُكنى أَهل الأَردن ، فرضى يحيي .

قال : واجتمعت قُضاعة فرأَسوا على أَنفسهم رجلاً يقال له :

---

(١) الأصل : « أعرضهم ».

(٢) الأصل : « القضاعية » .

(٣) مرج راهط : موضع فى الغوطة من دمشق ، وكانت به وقيعة بين عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم . (معجم البلدان : راهط) .

عبد الرحمن بن نعيم الكلبي ، فجمع مائتى رجل وأربعين فارسا ، ثم بيَّت القصر بقرطبة فطرد الحراس (١) وهجم على السّجن فأَخرج أَبا الخطَّار وهرب به ليلَه ، فأَقام به فى كَلب ، وقبائلَ من حِمص ، فاكتنفوه ومنعوه ، فنمرَّ ولم يحدث شيئًا ، حتى اجتمع الناسُ على يوسف .

فلما استقام ليوسف الأَمر لم يلبث أَن غدر بابن حُريث وعزله عن الكورة ، فغضب ابنُ حُريث وكاتب أَبا الخطَّار حتى اجتمعا ، فقال أَبو الخطَّار : أَنا الأَمير ، وقال ابنُ حُريث : بل أَنا أَقوم بالأَمر ، لأَن قومى أَكثرُ من قومك .

فلما رأَت قضاعةُ مايدعو إليه ابنُ حُريث أَحبُّوا جمع كلمة اليمن كلّها ، فأَجابوا ابنَ حُريث وقدَّموه ، فأَصفقت (٢) يَمَنُ الأَندلس حِمْيَرُها وكندتُها ومذحجُها وقضاعتُها ، وامتازت (٣) مُضَرُ وربيعة إلى يوسف ، وربيعةُ بالأَندلس قليل ، فلَحق خيارُ اليمن بابن حُريث من كل جند ، وتجرع أَهل البلد بتجرع أَهل الشام ، ولحق خِيارُ مُضر بيوسف والصُّمَّيل ، لايعرض أَحدٌ لأَحد ، يُخرج الجِوار (٤) ، فيودّع بعضهم بعضًا ، حتى يلحق كل رجل بقومه .

وهى أَول حَرب كانت فى الإسلام بهذه الدعوة ، لم تكن حَرب قبل هذه الوقيعة ، وهى الفِتنة العظمى التى بها يُخاف بوار الإسلام بالأَندلس ، إلا أَن يحفظه الله .

---

(١) الأصل : « الأحراس » .
(٢) أصفقت : أطبقت واجتمعت .
(٣) امتازت : انعزلت .
(٤) الجوار : العهد والأمان .

قال : فزحف ابن حُريث وأبو الخطَّار إلى يوسف والصُّمَّيل بقرطبة ، فأَقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة ، بقبليّها بقَرية شَقُنْدة ، وعبر يوسف والصُّميل النهر إليهما بمن معهما ، فالتقوا حين صَلّوا الصبح ، فتطاعَنوا على الخَيل حتى تقصَّفت الرِّماح ، وثَبتت الخيل ، وحَميت الشمس ، ثم تداعَوا إلى البراز ، فتنازلوا وتضاربوا بالسيف حتى تَقطَّعت ، ثم تقابَضوا بالأَيدى والشُّعور ، لم يكن فى الإسلام صَبْرٌ مثله إلا ما يذكر من صِفِّين ، ولم يكن القوم بكثير ، لا هؤلاءِ ولا هؤلاءِ ، وإنما كانوا خيارٌ من الفريقين ، وكانوا متقاربين ، إلا أَن اليمن كانوا أَكثرَ قليلا ، فلما أَعيا بعضُهم بعضًا تواقفوا يضرب بعضُهم وجوه بعض بالقِسِىّ والجِعاب ويَحْثى بعضُهم التراب على بعض ، إذ قال الصُّمَّيل ليوسف : ما وَقفنا إذ خلَّفنا جندًا نحن منهم فى غَفلة . قال : ومَن هم ؟ قال : أَهلُ السُّوق بقرطبة . فردّ إليهم يوسف مولاه خالد بن يزيد وصاحب .....(١) ، فأَخرجا منهم نحوًا من أَربعمائة راجل ، معهم الخُشب والعصى ، ومع قليل منهم السيف والمَزارق ، فخرج الجَزَّارون بسكاكينهم فجاءُوا إلى قوم مَوْتى ، وقد مَضت الظهر والعصر لم يصلُّوها لا صلاة خوف ولا أَمن ، فجرّدوهم وقتلوا وأَسروا بشرًا كثيرًا خيارًا ، وأَسروا أَبا الخطَّار وابن حُريث ، وكانا الأَميرين .

وكان ابن حُريث لما رأَى أَهل سُوق قُرطبة يقتلون أَصحابه ، تغيَّب ودخل تحت سرير الرَّحى التى بموضع بيع الخَشب ، فلما أَسروا أَبا الخطَّار وهمُّوا بقتله قال : ليس علىّ فَوْت ، ولكن عندكم ابن السوداء ، ابن حُريث ، فدَلّ عليه ، فأُخرج ، وقُتلا جميعًا .

(١) بياض بالأصل .

وكان ابن حُريث يقول : لو أَنَّ دماءَ أَهل الشام جُمعت لِى فى قدح لشربتها .

فلما استُخرج قال له أَبو الخطَّار : يابن السوداء ، هل بَقِى فى قدحك شئٌ لم تشربه ؟ فقُتلا ، وأُسر منهم بشر كثير .

ثم أُتى بالأَسرى ، وقعد لهم الصُّمَّيل فى كنيسة كانت فى داخل مدينة قُرطبة ، وهى اليوم موضع مسجدها الجامع ، فضَرب أَوساط سبعين منهم ، فلما رأَى ذلك قاسمُ بن فلان أَبو عطاء بن حَمد المُرِّى قام إِليه فقال له : أَبا جَوْشن ، أَغْمِد سيفك وراجع سيفك(١) ، قال له : اقعد أَبا عطاء ، فهذا عِزُّك وعزُّ قومك ، فجلس ولم يُغمد السيف ، ثم قام إِليه فقال له : ياأَعرابى ، والله إِن تقتلنا إلا بعداوة صِفّين ، لَتَكُفَّنَّ أَو لأَدعونّ بدعوة شامية ، فأَغمد سيفه ، وأَمن الناس على يدى أَبى عَطاء بعد بلاءٍ عظيم .

فيُقال ، والله أَعلم : إِن تلك الوَقعة تُوجد فى بعض العلم ، أَنها قاطعة الأَرحام ، وكانت قبل سنة إِحدى وثلاثين ومائة .

قال : فأَعقبهم الله بالجُوع والقحط ، فجاعت الأَندلس سنة ثنتين ، ثم استخلفت سنة ثلاث عامًا سعيدًا ، فثار أَهل جِلِّيقيّة على المسلمين ، وغَلُظ أَمر علج يقال له : بُلاى ، قد ذكرناه فى أَول كتابنا ، فخرج من الصَّخرة وغَلب على كورة واسْتُورس ، ثم غَزاه المسلمون من جِليقية ، وغزاه أَسْتُرقة زمانًا طويلا ، حتى كانت فتنة أَبى الخطَّار وثَوابة ، فلما

---

(١) كذا ، ولعلها : نفسك .

كان في سنة ثلاث وثلاثين هَزمهم وأُخرج عن جلِّيقية كلها ، وتنصر كل مذبذب في دينه ، وضعف عن الخَراج ، وقُتل من قتل ، وصار فلّهم إلى خلف الجبل إلى أَسترقة حتى استحكم الجوع ، فأَخرجوا أَيضًا المسلمين عن أَسترقة وغيرها ، وانضمّ الناسُ إلى ماوراء الدَّرب الآخر وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين ، واشتد الجُوع ، فخرج أَهل الأَندلس إلى طَنْجة وأَصِيلا وريف لبربر مُمتارين ومرتحلين ، وكانت إجازتهم من وادى بكورة شَذونة ، ويقال له : وادى بَرْباط ، فتلك السنون تُسمَّى : سِنِى بَرباط .

فخَفّ سُكان الأَندلس ، وكاد أَن يغلب عليهم العدو ، إلا أَنّ الجوع شمِلهم .

قال : وكان يوسف قد أَخرج الصُّمَّيل فوجّهه إلى الثغر الأَكبر اسدادة (١) بالأَندلس ، كانوا أَمثل حالا (٢) ، وكان الثغر لليمن فأَراد أَن يُذلهم ، فبعثه إلى سرقُسطة وافترص (٣) ضعف أَهلها ، فأَتى في مائة رجل من قريش ، ومَن كان معه من غلمانه وحشمه ومواليه ، فنال بها مُلْكًا وغِنىً ، ووفد عليه مَحاويل (٤) الناس فأَعطاهم الأَموال والرَّقيق ، ولم يأته صديقٌ ولاعدوّ فحرمه ، فازداد سُؤددا ، وأَقام بها أَعوام الشدائد التى تتابعت .

---

(١) كذا .

(٢) يبدو أن هذه العبارة « كانوا أمثل حالا » مقحمة .

(٣) افترص : اغتنم .

(٤) المحاويل : جمع محوال ، وهو من الناس : الكثير المحال في الكلام ، ولعله يريد مقاويلهم .

وكان بقرطبة فتى من بنى عبد الدار قد شرف وسُوِّد ، يقال له : عامر . من ولد أبى عدىّ أخى مُصعب بن (عُمير بن) (١) هاشم صاحب لواء رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، يوم بدر وأُحُد . وإلى عامر تُنسب مقبرة عامر التى بغربىّ سُور مدينة قرطبة ، فكان يلى الصَّوائف(٢) قبل يوسف فشَرُف ، فحسده يوسف ، فلما تبدّى له ذلك بعَث إلى أبى جعفر فيما يَحْدُث أن يَبعث إليه بسجلّه على الأَندلس ، وساءه ماصنع يوسف باليمن وماسفك من الدماء ، وابتنى حَظْرًا (٣) فى مُنية له كان يقال لها : قَناة عامر بغربىّ قرطبة ، فأَغلق غلقة عظيمة هَمّ أن يجعلها مدينة ، وأراد أن يبتنى بها بُنيانًا ينضم إليه ، ويغاور يوسف حتى يأتيه أمداد اليمن .

وضَعف سلطان يوسف حتى كان لايركب معه خَمسون رجلا من حَشمه ، فضعف الناس عليه بالأَندلس ، وأراد أن يتَقبَّض على عامر فوجده حَذرًا قد أُعلم بما يُراد به ، وكان يوسف جبانًا ، فلم يُرد أن ينازعه حتى يَحضُره الصُّمَيل ، فكتب إلى الصُّمّيل يُعلمه بما تبدل من أمر عامر ، فأَجابه يُشجعه على قتله ، وكان عامر لايَخفى عليه شئ من سِيَر يوسف ، وكان سخيًا لبيبًا عاقلا أديبًا ، فأتاه آتٍ فقال له : انظر لنفسك ، فقد أتاه كتابُ الصُّمّيل يُشجِّعه على قتالك (٤) ، فخرج هاربًا من قرطبة إلى سَرَقُسطة حيث الصُّميل ، ولم ير لنفسه أَمنع منها بكَثرة اليمن فيها ؛ ولم يثق بأَهل كُور الأَجناد لضعفهم ، ومابقى عليهم من وَقعة شَقُندة .

---

(١) التكملة من السيرة لابن هشام (٢ : ٢٦٤) طبعة الحلبى .

(٢) الصوائف : جمع صائفة ، وهى الغزوة فى الصيف .

(٣) الحظر : الحظيرة .

(٤) الأصل : « قتله » .

وكان بسَرقسطة رجل من بنى زُهرة من كلاب قد شَرُف ، فكتب إليه عامر ومتّ بقرابة وَلَد قصىّ من بنى زهرة فأجابه ، فسار عامرٌ حتى ورد بعض نواحى سَرقسطة ، فاجتمع هو والزُّهرىّ ، فدعوا الناس إلى سِجِل أبى جعفر ، فأجابهم رجال من اليمن وناسٌ من البربر وغيرهم ، فبلغ الصُّميل شأنهم ، فبعث إليهم خيلاً ورجالا من أهل الطاعة فهزموهم .

واجتمع لهما ملأٌ من الناس فأقبلا حتى حَصَرا الصُّميل بمدينة سرقسطة ، فكتب إلى يوسف يسأله إمداده ، فلم يجد فى الناس مَنهضا ، وذلك فى سنة ست وثلاثين .

فلما أبطأ عنه يوسفُ ، وخاف أن يُستنزل ، كتب إلى قَومه قيس فى جُند قِنَّسرين ودِمشق يعظِّم عليهم حقَّه ويسألهم إمداده ، ويعلمهم أنه يجتزئ من المدد بالقليل ، فقام فى ذلك عُبيد الله (١) بن علىّ الكلابىّ ، وجماعة كلاب ، ومحارب ، وسليم ،ونصر ، وهوازن كلها ، إلا بنى كعب ابن عامر ، وعقيل ، وقُشير ، والحريش ، فإنهم كانوا منافسين لبنى كلاب ، لأن الرِّياسة بالأندلس كانت فيهم ، كان بَلْجٌ قُشَيْريًّا ، فعمّهم الصميل .

وصارت الرِّياسة فى كلاب بن عامر ، وسيد بنى كعب بن عامر بدمشق سليمانُ بن شهاب ، وبقنَّسرين الحُصين بن الدَّجن العُقيلى ، وكانت غَطفان تقدِّم رجلا وتؤخِّر أُخرى ، ولم يكن لهم رأس يجمعهم ،

---

(١) الأصل : « عبد الله » .

(٢) الأصل : « والحريس » بالسين المهملة .

كان قد هلك رأسهم أبو عَطاء ، فلما نهض عبيد (الله) (١) بن على ، ودعا فى الجند إلى نَصر الصُّمّيل ، تقاعس ابن شهاب ، وابن الدَّجن ، وأصفقت (٢) بنو عامر كلها على الخروج إليه : كلاب ، ونمير ، وسعد ، وجميع قبائل هوازن ، وسليم بن منصور ، وتابعهم بعدُ غطفان بن سعد .

فلما رأى ذلك سليمانُ والحُصين علما أن قعودهما عنه ليس بضائره فخفَّا وخرجا ، ومن خرج معها من قومهما ، فخرجت قيسٌ كلها من الجندين ، والجندان متجاوران بالأندلس ، فخرجا على صَفقة من الناس ، فلم تجتمع لهم إلا ثلثمائة فارس وبضع وستون فارسًا ، فاستقلوا أنفسهم ثم قالوا : ليس مثلك يترك وإن هلكنا .

وخفَّ معهم بنو أُمية ، وهم أكثر يومئذ بدمشق ، فخرج إليهم فى هذا العدد ثلاثون فارسًا من بنى أُمية ، فيهم من رؤسائهم : أبو عثمان عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله بن خالد ، وكانا يتواليان لواءَ بنى أُمية ، يعتقبان ذلك ، ويوسف بن بُخت ، وكانوا قد حضروا شَقُندة مع يوسف والصُّميل ، بخيار بنى أُمية .

وكان لبنى أُمية يومئذ بلاء عظيم معروف وصبر محمود ، فكانوا من يوسف بأشرف المنازل ، ومن الصُّميل وجميع قيس ومُضر ، فخرجوا مع قيس فيمن قَوى من بنى أُمية .

---

(١) تكملة يقتضيها السياق .

(٢) أصفقت : أجمعت .

ورجع هاهنا شيء من حديث عبد الرحمن بن معاوية (وله اجتلبنا حصر الصميل لينظم الحديث) .

قال : وكان عبد الرحمن بن معاوية ، لما وقع عند نَفْزة بسَبرة قام فيهم آمنًا ، فكتب إلى مواليه بالأَندلس كتابًا يشكو فيه ماابتُلوا به ، ويعظّم عليهم حقه ، ونُزوعه إليهم ، وماصَنع به ابن حبيب وبقومه بإفريقية ، ويعلمهم أَنه إن دخل إلى يوسف لم يَأمنه ، ويَعرض أَنه إنما يريد الاعتزاز بهم وأَن يَمنعوه ، وإِن تَهيأَ لهم مافيه طلب سلطان الأَندلس أَن يعلموه ، وبَعث بكتابه بدرًا مولاه .

فلما جاءهم بدرٌ بكتابه اجتمعوا وتشاوروا ، وبعثوا إلى يوسف بن بُخت ، وكان من رجالهم وأَنجادهم ، وكان فى جُند قِنسَّرين ، فاجتمع رأْيهم على أَلاّ يَرُدّوا إليه جوابا حتى يشاوروا الصُّميل فى ذلك ويدعوه إليه ، وكانوا (١) واثقين به إن لم يجبهم أَلا يرفع عليهم شيئًا ، فكان هذا مما أَخرجهم إلى إمداد الصُّميل ، مع ما أَرادوا من اعتقاد اليد عنده وعند قيس .

(ثم رجع حديث إلى خروجهم)

قال : فخرجوا ، وهم ثلثمائة فارس وبضع وستون فارسًا ، وابن شهاب معهم ، والحُصين بن الدَّجن ، فرأَّسوا على أَنفسهم ابن شهاب استئلافًا له ، فعل ذلك عبيد (الله) (٢) بن على ، وهو يومئذ سيد بنى كلاب بعد الصُّميل . فساروا حتى أَتوا وادى أَنّه ، وبه عُقْدة

(١) الأصل : « وكانا » .

(٢) تكملة يقتضيها السياق .

ابن بكر بن وائل وبنو (١) علىّ ، فاستعانوهم ، فخرج معهم أربعمائة أو يزيدون ، فلما بلغوا طُليطلة بلغهم أن الحِصار قد أضرَّ بالصُّميل ، وخافوا أن يُلقى بيده إذا يئس من المدد فيهلك ، فعجَّلوا إليه رسولا من قِبَلهم وقالوا له : ادخل فى جُملة خيول عامر ، والزُّهرى ، التى تقابل السور ، فارْمِ هذه الحجارة ، وبعثوا معه حجارةً وكتبوا فيها بيتى شعر ، وهما :

تبشَّر بالسلامة ياجِدَارُ أتاك الغوثُ وانقطع الحِصارُ
أَتتك بناتُ أعوج مُلْجمات عليها الأكرمون وهم نِزار

فسار الرسولُ حتى فعل ، فلما واقعت الحجارة المدينة التى بها الصُّميل أو ببعضها ، فأمر من يقرأ مافيها ، وكان لايقرأ ، فلما سمع مافيها قال : أبشروا ، قومى ورب الكعبة ، فتمسَّك بالحِصن وقوى ، ومضى القوم وفيهم الأمويون : أبوعثمان ، وعبد الله بن خالد ، وابن بخت ، وغيرهم ، ومعهم بدر رسول ابن معاوية ، قد حَملوه وساروا به .

وكان ابن معاوية قد كتب إليهم وبعث قرطاسا وخاتَمه ، بأن يكتبوا عنه إلى جميع من رَجوْا نَصْرَه ، فكتبوا إلى الصُّميل يذكرونه أيادى بنى أُمية .

قال : وَمَضوا حتى أتوا سَرقسطة ، فانكشف عامر ، والزُّهرى ، لمَّا سمعوا بالمدد قد قاربهم .

قال : وخرج الصُّميل فتلقاهم بالرُّحب وأعطاهم العطاء الجزيل ،

(١) الأصل : « وبنى ».

أَعطى خيارهم خمسين خمسين دينارًا ، وأَعطى خيار القواد مائتى دينار وأَعطى غيرهم من الناس عشرة عشرة دنانير وشُقة شُقة خز، ثم أَقبلوا به وبماله وحَشمه وخلَّوْا عن الثغر .

فلما أَقبلوا خلا به الأَمويون الثلاثة ، وكلَّمه عبد الله وأَعطاه الكتاب ، وقال له : تَقدَّم علىّ ، لا رضى ولا سخط إلا برأيك ، فإن ترض أَمرًا رضيناه ، وإن تَسخطه سخطناه .

فقال لهم : دعونى أَروِّ وأَنظر ، وأَقبل قافلا ، وقد جمعوا بينه وبين بدر ، رسول ابن معاوية فأَعطاه عشرة دنانير وشقة خز ، وأَقبل حتى دخل قرطبة ، وانصرف الأَمويون إلى منازلهم ومعهم بدر .

وأَربع الناسُ وحملت الأَرض ، واشتد يوسف على الخروج إلى الثغر وهذا كله فى سنة سبع وثلاثين .

قال : فخرج بالناس وبعث إلى أَبى عثمان ، وعبد الله بن خالد ، فقدما عايه ، فقعد لأَحدهما ، ثم قال له : اخرج بموالينا ، فقال له : ليس فى القوم نَهضة ولا قوة على الخروج ، كُلُّ من كان فيه منهض قد نَهض إلى أَبى جَوشن ، فتقطَّعوا ، وأَهلكهم الله بالشتاء والسفر ، مع ما نال الناس من الجهد .

فأَخرج إليهما أَلف دينار وقال : قَوِّياهم بهذه ، فقالا له : هم خمسمائة مدوَّن ، وأَين تبلغ هذه منهم ؟ قال : على ذلك . فلما خَرجا روَّيا وقالا : ما لنا لا نأخذ هذا المال ثم نسير فنتقوى به على ما نريد ، فسارا .

وخرج يوسف فلم يعرِّج على شئ ، فلما بلغ جَيّان أَتاه أَبو عثمان

وعبد الله ، وكانا حين سارا بالمال فرّقاه على بنى أُمية ، فلم يصر لهم إلا عشرة دراهم أَو نحوها ، وأَعطوها الناس تقوية لهم ، واستئلافًا ، ليس لغزو إلا لما يريدون .

فلما أَتياه بجيّان ، وهو نازل على مَخاضة الفتح يَنتظر تتامّ الناس إليه ، إذ أَقبلت إليه الأَجناد ، وجماعة الناس ، فأَعطى الأُعطيات .

فلما علم أَبو عثمان أَنه لا يعرِّج ولا يُقيم دخل عليه فقال له : ياعبد الله ، أَين موالينا ؟ فقال : أَصلح الله الأمير ، مواليك ليسوا كغيرهم ، لامُقام لهم عنك ، وإنما سأَلونى إنظارهم حتى يبلغ الأَمير طُليطلة ثم يلحقونه بها ، لعلَّهم أَن يتناولوا شيئًا من جديد شعيرهم .

وكانت سنة سبع وثلاثين سنة خُلف ، وكان خروج يوسف فى عقب سنة سبع وثلاثين فى ذى القعدة ، فصدَّقه يوسف ولم يتهمه ، فقال له : ارجع إليهم ، وليكن منك عليهم ضاغط ، وتلك كانت حاجته .

وحَضر رحيل يوسف ، فسار معه أَبو عثمان مودِّعًا ، فلما ودَّعه رجع ليودِّع الصُّميل ، ولم يتحرك من العسكر ، كان صاحب خَمر يُدمن عليها ، لايكاد أَن يبيت ليلة إلا سكران ، فأَلفاه راقدًا ، فثبت له حتى تحرك ، وقد مضى الناس فلم يبق غيره وغير حشمه ، فلما خرج تقدّم إليه أَبو عثمان وعبدُ الله ، فقال لهما : مانبأَكما ؟ وما رَجَعكما ؟ فأَعلماه بالذى كان من إذن يوسف ليلحقاه ببنى أُمية بطُليطلة ، فاستحسن ذلك .

ثم ساروا حينًا ، ثم دنوا منه فقالا له : أَخْلِنا نفسك ، فَنَحّى أَصحابه فقالا له : الذى كُنا نشاورك فيه من أَمر ابن معاوية ، فإن الرسول

لم يبرح ، فقال : أما إنى ماأغفلت ذلك ، ولقد روّيت فيه ، واستخرت الله ، وكتمت الأَمر فما شاورت فيه قريبًا ولابعيدًا ، وفاء بما جعلته لكما من سَتره ، قد رأَيت أنه حقيق بنَصرى حقيق بالأَمر ، فاكْتُبا إليه . . . (١) ، على بركة الله ، فإن هذا الأَصلع عليه (٢) أن يتخلّى لى من هذا الأَمر وأَزوجه أُم موسى ، يريد ابنته ، وكانت قد أرملت تلك الأَيام من زوجها قطن بن عبد الملك ، على أن يكون واحدًا منّا ، فإنْ فعل قَبِلْنا منه وعَرفنا حقه ومِنَّتَه ويَدَه ، وإن كره هان علينا أن نقرع صَلْعته بسيوفنا ، فقبَّلا يديه وشكراه .

قال : فكان أَبو عُثمان عبيد الله بن عثمان يحدِّث ، قال : سِرْنا عنه ساعة نحوًا من ميل ، مُنصرفين فرحين ، لا نَرى إلا أَن الأَمر تَمّ لنا ، إذا نحن بصائح خلفنا : أَبا عثمان ، فنظرنا فإذا وسيطٌ له على فرس ، فوقفنا ، فقال لنا : يقول أَبو جَوْشن : أَقِيما حتى آتيكما ، قال : فأَعْظَمنا إتيانَه بنفسه ، لنكون نحن أَولى بإتيانه ، ووالله مانأْمنه ، ثم توكلنا على الله فسِرْنا ، فإذا هو قد أَقبل على الكَوكب ، بَغْله الأَبيض ، وهو يَجنح به ، فلما رأَيناه وحده أَمِنًا وعلمنا أنه لو أَراد مكروهًا رَدَّ معه أَعوانًا ، فنادانا فدنونا منه ، فقال لنا : إنّى مذ أَتيتمونى برسول ابن معاوية وكتابه لم أَزل فى إدارة ، فاستحسنتُ مادعوتما إليه ، ثم كان منّى إليكما ماكان ، فلما فارقتُكما روَّيت فيه فوجدتُه من قوم لو بالَ أَحدهم فى هذه الجزيرة غَرِقنا نحن وأَنتم فى بَوْله ، وهذا رجل قد حكمنا

---

(١) بياض بالأصل .

(٢) الأصل : « على » .

عليه مع ماله فى أعناقنا ، والله بلغتما بيوتكما ثم رأيتما هذا لظننت ألاّ أُقصّر حتى أَرجع إليكما ، لئلا أغرّكما ، وأنا أُعلمكما أن أول سيف يُسل عليه فسيفى ، فبارك الله لكما فى رأيكما ومولاكما ، فقلت : أصلحك الله مالنا رأىٌ إلا رأيك ، فقال : لا تفعلا ، فوالله مايَسعكما إلاّ النظر له ، فإن أَحبَّ غير السلطان فله عندى أن يواسيَه يوسف ويُزوِّجه ويَحْبُوه ، انطلقَا راشدَيْن .

ثم انصرف عنا ، قال : فانقطع رجاؤنا من مُضر وربيعة بأَسرها ورجع رأيُنا إلى إطِّباء (١) اليمن وإدخالهم فى رأينا ، ففعلنا ذلك من فَورنا ، لم نمرَّ بيمانى له بالٌ وثَقِنا به إلا عرضنا عليه أمرَ ابن معاوية ودَعوناه إليه ، فأَلفينا قومًا قد وَغِرت صدورُهم يتمنَّون شيئًا يجدون به سبيلاً إلى طلب ثأرهم ، ورَغبوا فى عقد بنى أُمية بالأَندلس .

ثم رَجعنا إلى جُندنا ، وقد يئسنا من مُضر ، فابتعنا مَرْكَبًا ووجَّهنا فيه أَحد عشر رجلا منَّا مع بدر ، فيهم رجالٌ كنت أُسمِّيهم أُنسيتهم ، منهم رجل كان يُقال له : شاكر ، غلام هشام ، وتمَّام بن علقمة الثقفى ، وأعطينا تَمَّامًا خمسمائة دينار تكون معه عُدَة للنفقة عليه ولِفِدْية البربر ، وكان ابنُ معاوية فى مَغِيلة فى طاعة ابن قُرَّة المَغيلىّ منتظرًا لبدر مولاه ، فمضى القومُ فى المركب ، فلم يَنْشَب ابن معاوية وهو يصلِّى المغرب حتى نظر إليه مقبلاً فى اللُّج ، حتى أَرْسى ، وخرج إليه بدر سابحا ، فبَشَّره بما تَمْ له بالأَندلس ، وماخلَّف فيه أَبا عثمان وعبد الله بن خالد ، وغيرهما

---

(١) أطباه : دعاه دعاء لطفا واستماله إليه .

من رجال الأَندلس من الاجتماع عليه والرِّضى به ، وأَخبره بخبر المَركب وسمى له من فيه ومامعهم من المال للنَّفقة عليه .

ثم خرج إِليه تمَّام بن علقمة ، فقال له عبدُ الرحمن : مااسمُك ؟ قال : تمَّام ، قال : وماكُنيتك ؟ قال : أَبو غالب ، قال : تَمَّ أَمرُنا وغَلَبْنا عدوَّنا ، فاستحجبه لذلك ، فلم يَزل حاجبًا فى أَيامه حتى مات .

فلما أَراد أَن يدخل المركب أَقبلت البَربر فعرضت لهم ، ففرَّق عليهم تمَّام من المال الذى كان معه صلاتٍ على أَقدارهم ، حتى لم يَبْقَ أَحد ، فلما صاروا فى المركب أَقبل واحد منهم لم يكن أَخذ شيئًا فتعلَّق بحَبل الهَوْدج ، فحوَّل شاكرٌ يده إِلى السيف فضَرب يَدَ الرَّجل فقطعها(١) ، وسقط الرجلُ فى البحر ، فقادوا (٢) مركبهم ومضوا حتى حَلّوا المُنَكَّب، وذلك فى شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وثلاثين ومائة .

فأَقبل إِليه عبد الله بن خالد وأَبو عثمان فنقلاه إِلى قرية طُرُّش ، منزل أَبى الحجَّاج ، فجاءَه أَبو الحجاج يوسف بن بُخت ، وجاءَته الأُموية كلها ، وجاءَه جُداد بن عمرو المذحجى ، من أَهل ريَّة ، كان بعد ذلك قاضِيَه فى العساكر ، وجاءَه عاصمُ بنُ مسلم الثقفى ، وأَبو عَبدة حسان ، فاستوزره ، وجاءَه العَبْدىّ أَبو بكر بن طُفيل ، واختلف الناس إِليه .

قال : ومضى يوسف حتى أَتى طُليطلة ، فجعل يقول : ماأَرى موالينا لحقوا بنا ، فلما أَكثر ، قال له الصُّمَيل : انطلق ، ليس مثلك أَقام على

---

(١) الأَصل : « فقطعه » .

(٢) الأَصل : « فقلدوا » .

مثلهم ، أخاف فوت الفرصة ، فسار حتى ورد سَرَقُسطة ، فلما خاف أهلَها مَعَرّة الجيوش أَسلموا عامرًا ، وابنه والزُّهرىّ ، فأَخذهم وكَبَّلهم وأَراد قتلهم ، فاستشار فيهم خِيَارَ قيس ، فكلُّهم أَشار بأَلا يفعل ، وأَن يُبلغهم ، وكان أَشدَّهم قولاً فى ذلك سليمانُ بن شهاب ، والحُصين ابن الدَّجن ، فلما رأَى اجتماع الجُند على أَلا يقتلهم حَبسهم ، ثم رأَى أَن يُمضِى طائفة إلى البُشْكنس بِبَنْبلونة ، وكان أَهلها قد نَقضوا بنَقض أَهل جِليقية ، فقَطع بعثًا عليهم ابنُ شهاب ، وأَحبَّ إقصاءه ، وجعل على خيله ومقدِّمته الحُصين بن الدَّجن ، وبَعثهم فى ضَعف ، ولم يكره عَطبهم ، فساروا ، فلما أَمعنوا رجع قافلاً فى قليل من الناس ، فسار حتى بلغ وادى شَرَنْبه ، فأَدركه الرسول بهزيمة ابن شهاب وقتله ، وقتل عامة الناس ، وأَن فلَّهم مع الحُصين بسَرقُسطة عند أَبى زيد عبد الرحمن ابن يوسف ، وكان يوسف قد خلَّفه على الثَّغر ، فسره ذلك ، ثم دعا بعامر وابنه وَهب ، وبالزهرىّ ، وقد قال له الصُّميل : أَما ابن شهاب فقد أَراح الله منه ، فقدِّم هؤلاءِ فاضرب أَعناقهم ، وذلك وقتَ الضحى .

وقد أَقام ذلك اليوم ويومًا قبله بوادى شَرَنْبه فرحًا مسرورًا ، فأَمر بهم فضُربت أَعناقهم ، فلما فرغ بهم وُضع الطعام فأَكل هو والصُّميل ، وقال له : قد قتل ابن شهاب ، وقتلت عامرًا والزهرى ، هى والله لك ولولدك إلى الدجّال ، مَن هذا ينازعك ؟

ثم خَرج عنه إلى ابنتيه ليَقيل (١) ، فاضطجع يوسف مفكِّرا فيما صَنع ، ووَضع رجله اليمنى على (٢) اليسرى ، وهو مستلقٍ مفكِّر .

---

(١) قال يقيل : نام وسط النهار .

(٢) الأصل : « عن » .

قال المحدِّث : فوالله ماأَنزل رجله اليُمنى عن اليُسرى حتى صاح أَهلُ العسكر : رسول ، رسول من قُرطبة ، فقعد ، فقالوا : نَعم والله ، فلان ، غلام له على بَغلة أُمّ عثمان أُمّ ولده وصاحبة سُلطانه ، وكانت البُرُد قد قطعها الجوع فلابَريد ، فلم يَرُعْه إلا دخول الرسول عليه ومعه قِطْعةٌ فيها : ابن معاوية قد دَخل ونزل بطُرُّش عند الفاسق عُبيد الله ابن عثمان ، وأَصفقت معه بنو أُمية ، وإن خليفتك على إلبيرة زَحف إليه بمن خَفَّ من أَهل الطاعة لِيُخرجه ، فهُزم وضُرب أَصحابه ولم يَقع قتل ، فرَ رَأْيك .

فدعا الصُّميل ، فأَتاه مذعورًا ، من بَعثته فيه وقتًا لم يكن يَبعث فيه فى مثله ، وقد بَلغه قدوم الرسول ، إلا أَنه لايعلم ماجاءَ به ، فقال : أَصلح الله الأَمير ، ماأَقلقك فى هذا الوقت إلا حَدث ، قال : نعم والله ، جليل ، وإنى أَخاف أَن يكون الله قد أَنزل النِّقمة علينا بقتل هؤلاءِ ، فقال له الصُّمَّيل : ولاهذا كُله ، لقد كان أَهون على الله ، فما هو ؟ قال : اقرأ عليه ياخالد كتابَ أُم عثمان ، قال : خَطْبٌ جليل ، والرأى أَن نَقطع إليه من فورنا هذا بمن مَعنا من الناس ، فإما قتلناه وإما شَرَّدناه فهَرب ، فإن هرب لم يَستَقِلها أَبدا . قال : وذلك .

فكانوا على ذلك حتى شاع الخبر ، ولم يضبطوا سرَّهم ، فذاع الخبر فى الناس ، وقد قُتل من قتل منهم مع ابن شهاب ، وبَقى فلهُّم بسرقُسطة ، فتصايح الناس : غزوتان فى غزوة .

فلما أَمسوا تصايحوا بمشاعرهم ، فلم يَبْق معهم من اليمن عشرة رجال

إلا من كان له لواءٌ فلم يقدر على تركه ، ولم يَسُؤْهم ماصَنع سَوَادُ قومهم ، وبقى نَفَرٌ من قيس خاصة ، ومن قبائل مُضر قليل قد ملُّوا السفر .

قال : فأَقبلوا يُهَوِّنون عليه الأَمر ، يُشيرون عليه بالمضى إلى قُرطبة ، والصُّمَّيل على رأيه الأَول ، حتى وقع المطر وأقبل الشتاء وحملت الأَزهار ، فترك المسير إلى ابن معاوية ومَضى إلى قرطبة ، وقال له قائل : الرجلُ لم يُظهر طلب سلطانك ، وإنما جاءَ يطلب معاشًا وأَمْنًا ، فإن عرضت عليه المُصاهرة ، وأَنت توسِّع عليه أَلفيته مسرعًا ، فَوَفَّد إليه وفدًا .

فلما قَدم قُرطبة وَفَّد إليه وفدًا ، فيه : عبيد الله بن على ، وخالد ابن زيد كاتبه ، ومولاه عيسى بن عبد الرحمن الأَموىّ ، وكان يومئذ على أَرزاق الأَجناد وحَشم يوسف عارضا ، وبعث معهم بكُسى وفَرَسَين وبغلين ووصيفين وأَلف دينار ، وكتب إليه يذكر له اصطناع آبائه لجد يوسف بن عقبة بن نافع ولأَهله ، ويدعوه إلى الصِّهر والتوسعة عليه .

فسار الرُّسل حتى بلغوا أُرش ، فى أَدنى كورة ريَّة ، فقال : إن عيسى ابن عبد الرحمن ، الملقَّب بتارك الفرس ، قال لهم : بأَى رأَى يَعيش يوسف والصُّميل ، وأَنتم أَرأَيتم إن بلغنا بهذه الهديَّة فِكْرة ماجئنا به ، أَليس إنْ أَخذ مامعنا قَوِى به ووَهَن صاحبنا .

فأَبصر القومُ عَوار رأْيهم ، وقالوا له : أَقِمْ بما معنا ونَسير نحن ، فإن أَعطانا بيعته ورَضِى بما جئنا به سَرَّحنا إليك رسولنا لِتقدُم علينا بما معك ، وإنْ يكن (١) غير ذلك فأَرجعه إلى الأَمير ، فهو أَحقُّ بماله.

---

(١) الأصل : « وأن يكون » .

فسار عُبيد وخالد ، وأقام عيسى بكل ماكان معه ، حتى قدم على ابن معاوية بطُرُّش عند أبي عثمان ، وعنده جماعة بنى أُمية ورجالٌ من اليمن يختلفون إليه ، ويَعتقبون المقام عنده ، منهم دمشقيون وأُردنيون وقِنَّسريون فاختطب(١) عُبيد وخالد ، كل واحد حذو صاحبه ، ودعواه إلى الأُلفة ، وأن يصاهره يوسف ويُحسن وَفدهم ، ثم جلس ، فأَخرج خالد كتابًا ، فناوله إياه ، فأَخذه ابن معاوية فقال اقْرَأْه وأَجب فيه بما تعلم من رأْينا ، وقد كانوا أَرادوا وقالوا : ماأَحسن ما عرضتما ، وماجاءَ إلا طالبًا لمورينه (٢) . فلما أَخذ أَبو عثمان الكتاب قال له خالد ، وكان لبيبًا أَديبًا عاقلا ، إلا أنه زلّ ، وكان هو مُملى الكتاب ، فآن له العجب والنَّفخ ، وقديماً ماأَهلك دين الرِّجال ودنياهم ، يا أَبا عثمان لتعرقنّ إبطاك قبل أَن تُحِير فيه جوابًا . فرفع أَبو عثمان فضَرب بالكتاب وجه خالد وقال له : ياماصّ بظر أُمه ، لاتَعْرَق لى فيه إبطٌ ولاأَحير فيه جوابًا ، ثم قال : خُذوه ، فأُخذ وكُبّل من ساعته .

وقالوا لعبد الرحمن : هذا أَول الفتح ، هذا سلطان يُوسف كله . قال لهم عُبيد : هو رسولٌ ، ولاسبيل إليه . فقالوا : أَنت الرسولُ ، وهذا متعدٍّ قد بدأَ بالشتيمة والانتقاص ، ابن الخبيثة العلج ، ثم سرّحوا عُبيدًا ، وحبسوا خالدًا .

وبلغهم خبر الأَموال المخلَّفة بأَرش ، فأَقطعوا إليها خيلا ثلاثين فارسًا ، فوجدوا الخبر قد سَبق إلى عيسى ، فطار راجعًا بكُل مامعه .

---

(١) اختطب : خطب .

(٢) كذا ، ولعلها : لموارثه .

فكان ابن معاوية بعد ذلك يُقيم عيسى ويقول : أَنت مولانا ، لاتشك فى قرب ولائك منّا . ففعلت وفعلت ، فيعتذر بالوفاء .

وكان ابنُ معاوية ذا بقيَّة فى مواليه فوضع عنه ذلك الذنب ، إلا أَنه لم يبلغ به كما بلغ بمثله من مَواليه .

ولما رَجع عُبيد إلى يوسف ، وقد صنع بخالد ماصنع ، هاض(١) ذلك يوسفَ والصُّميل ، وجَعل الصُّميل يُثَرِّب عليه فى خلافه رأْيه ، إذ لم يمض إليه من حيث بلغه خبره .

وبرك الشتاء ، فلم يُمكن واحدًا من الفريقين تحرك حتى انقرض الشتاء ، فلما انقرض ، وقد كاتب ابن معاوية الأَجناد كلها والبربر فأَجابته اليمن بأَسرها ، ولم يُجبه من قيس إلا جابر بن العلاء بن شهاب ، وأَبو بكر بن هلال العبدى ، والحُصين بن الدَّجن ، هؤلاء الثلاثة فقط ، لِمَا كان فى أَنفسهم مما صنع يوسف والصُّميل بابن شهاب وتطويحهما به ، وكان الصُّميل قد ضَرب العبدىّ وهلالاً ؛ ومن ثقيف من أَعداد بنى أُمية ثلاثة أَيضًا : تمام بن علقمة ، وعاصم العُريان ، وأَخاه عمران .

وأَصفقت مُضر كلها مع يوسف ، فبعث إليهم وعسكر بقرطبة فى شَقُندة ، يريد إلبيرة ، وقد انحاز أَهلها ، من قيس وغيرها من مضر ، فعسكروا منتظرين ليوسف ، وانضمت اليمانية والأُموية إلى ابن معاوية .

قال : فلمَّا بلغ عبد الرحمن بنَ معاوية تَبْرَيزُ (٢) يوسف إليه ،

---

(١) الأصل : « هاص » ، بصاد مهملة ، تصحيف ، وهاض : كسر.

(٢) تبريز : خروج .

قيل له : ليس فيمن فى إلبيرة من اليمن وبَنى أُمية مانَدفع به عادية قيس ، وجماعة الناس مع يوسف ، ولكن نَرى أن نتحرَّك إلى أجناد اليمن : حمص ، وفلسطين ، والأُردن ، فنأتيه من خِلاف وجهه .

فخرج حتى أَتى أَهل الأُردن ، وهُمْ إليه أَقرب ، فأَجابته اليمنُ وقضاعة كلها ، واستجْبَوْا(١) أَن يأْتى الأَجناد الأُخر ، وخَف معه من أَهل الأُردن من خيارهم ناس قليل ، فسار حتى أَتى طَرف شَذونة ، حيث أَهل فلسطين ، فتَسرّع إليه سرًّا القوم وحماة الجند ، وقد كان مَن فى ذلك الجُند من بنى كِنانة ، وهم مع الجُند ، تحركوا مع كِنانة بن كِنانة إلى يوسف ، فلم يَعرض ابنُ معاوية لأَحد من أَولاده ولالأَحد ممن خلَّفوه ، ثم أَقبل بهم حتى أَتى جُند إشبيلية جُند حمص ، فخرج إليه خيارهم من اليمن : شاميّها وبلديّها ، وبلغ يوسفَ خبرُه ، فرجع إليه واستقبله ، وأَقبل كل واحد منهما إلى صاحبه بِمَن معهما ، وابنُ معاوية لالواءَ معه .

وخَرجت الأَجنادُ الثلاثة بأَلويتهم ، فقال بعضهم لبعض : سبحان الله : ماأَشدَّ خلاف أَمرنا ، نحن بأَلوية وصاحبنا بلا لواء .

فأَقبل أَبو الصَّبَّاح يَحيي بن فلان اليَحصبىّ بقناة وعمامة ، والعِمامة والقَناة لرجل من حَضْرموت لاأُسمِّيه ، ثم دَعَوْا رجلاً من الأَنصار لاأُسميه ، تفاءَلوا باسمه ونَسبه ، فعُقد له بقرية قُلُنْبَيْرة من إقليم طُشَانة ، من كورة إشبيلية .

فحدَّثنى غيرُ واحد من المَشيخة أَن أَبا الفتح الصَّدْفُورىّ العابد ، وكان الجِهاد قد غلب عليه ، وكان يُرابط بثغر سَرقسطة مرةً وبثغره

(١) الأصل : « واستحبوا » .

الذى كان يسكنه بقُلُنْبَيْرة مرة ، وكان صديقًا لِفَرْقد ، العالم بالحدثان ، وكان يأتى الثَّغر فيرابط فيه مع فَرقد ، ثم يسير فرقد فَيرابط بقُلُنْبَيْرة : فكانا أكثر دهرهما مصطَحبَيْن ، فكان أبو الفتح يقول : أَقْبَل معى فرقد حتى مَرَرنا بمدينة قَسْطَلونه بكورة جَيَّان ، فقال : إنى أجد لهذه المدينة خبرًا شنيعًا ، فاعدلْ معى إليها لأَصِفَ لك خبرها .

قال : فعدلتُ معه فوصف ماحدث فيها بين الأَميرين : ابن معاوية وأَبى الأَسود بن يوسف ، فكان كما قال بعد ذلك .

واجتلب لى دخول ابن معاوية ، وقال : إذا مَررنا بكورة إشبيلية أَريتُك المكان الذى يُعقد فيه لواؤه ، فسِرْنا حتى أَتينا القَرية ، فقال لى ، وأَشار إلى شَجرَتَىْ زيتون : يُعقد لواؤه بين هاتين ويحضره مَلك من الملائكة موكل بنصر الأَلوية فى أَربعين أَلفًا ، لايَرْسل (١) على عدو إلا تقدّمه النصر على أَربعين يومًا .

فبلغ هذا الأَمير عبد الرحمن بن معاوية ، فكان كُلما خَلقت العمامةُ سَتَر فضولها ، وعقد على العُقدة .

ومضى على ذلك هشام ، والحكم ، وعبد الرحمن ، إلى غزوات ماردة ، فلما أَرادوا بَدل العمامة وجدُوا الأَخلاق القديمة ، فحلَّها عبدُالرحمن ابنُ غانم ، والاسكندرانى ، فطرحاها وجدَّدا عمامة ، وجَهور غائب عنهم ، فلما أَقبل أنكر ذلك وأَعظمه ، ودَعا إلى طلب الأَخلاق ورَدّها ، فلم توجد ، ولم يَلتفت إليه أَحد .

---

(١) مكان هذه الكلمة « لا يرسل » بياض بالأصل .

(رجع الحديث)

ويوسفُ نازلٌ بِمُدَوَّر صدف ، ثم رحل يوسف ورحل ابن معاوية فنزل طُشَانة ، والنهر بينهما ، وذلك فى أَول ذى الحجَّة سنة ثمان وثلاثين ومائة ، فتناوشا والنهرُبينهما ، فكان ماءُ النهركثيرًا لاسبيل إليه ، ثم زاد حتى امتنعا ، فأَقاما (١) عليه انتظارًا لنُقصانه ، ثم رأَى ابن معاوية أَن يَبْدُرَه إلى قرطبة ، قيل له : إن عامة مَن فيها مواليك ، وهم كثير ، فأَوقد نيرانه ليلاً ، ثم رَحل من جَوف الليل لِيَسْبِقَه ، وبينه وبين قُرطبة خمسة وأَربعون ميلاً ، فلم يَسِرْ ميلاً حتى أَتى يوسفَ مَن يُعلمه بما أَراد من مُخالفته إلى قُرطبة ، فأَصبحا كفرسَىْ رِهان ، والنهر بينهما ، فعلم ابنُ معاوية أَنَّه قد أُتى بما أَراد ، فأَمسك عن ذلك ، ثم نزل فنزل يوسف بنزُوله ، ثم لم يزالا يَسيران حتى نزل يوسف فى المُصَارة ، ونزل ابنُ معاوية إلى بابِش ، وقد انكسر سَفِلة أَصحابه ومَن لاعِلم له بالأَمر ، وكانوا رَجَوا دخول قُرطبة والتوسع فى معاشها والانتصار بأَهلها ، وكانوا فى ضِيق من المعاش ، حتى ماكانوا يتقوتون إلا بالفُول الأَخضر ، وذلك فى أَيَّار .

وأَقبل يوسف إلى رَفاهة عيش ، فأَقام هو وأَصحابه فيما شاءُوا ، ولحق بابن معاوية كلُّ من قَوَّتْه نفسه على ذلك ، من اليمن وبنى أُمية من أَهل قُرطبة ، ونقص النهر يوم الخميس لتسع ليالٍ مضين من ذى الحجة يوم عرفة ، فقال لهم : إنَّا لم نجئ للمقام ، وقد دعانا هذا الرجل إلى ماعلمتُم ، وعرض ماسمعتم ، ورأْيي لرأْيكم تَبَعٌ ، فإن كان

---

(١) الأصل : « فأقام » .

عندكم صبر وجلد وحُبٌ للمكافحة فأَعامونى ، وإن يكن فيكم جُنوح إلى السِّلم والصلح فأَعامونى ، فأَصفقت اليمن كلها بأَسرها على الحَرب ، ورأَت ذلك بنو أُمية .

فَكَتَّب كتائبه ، وبعث على خيل أَهل الشام عبدَ الرحمن بن نُعيم الكلبىّ ، وعلى رجّالة اليمن بَلوهة اللَّخمىّ ، من أَهل فلسطين ، وعلى رجّالة بنى أُمية ومَن جاءَهم من البربر عاصِم العُريان — ويومئذ سُمِّى العُريان ، تَجَرّد فى سراويله فقاتل حتى فتح الله له ، فسُمِّى العُريان — وعلى خَيل بنى أُمية حَبيب بن عبد الملك القُرشى ، وهو من وَلد عمر ابن عبد الواحد ، وجَعله على جماعة الخيل ، وعلى خَيل من صحبه من البربر إبراهيم بن شَجرة الأَودى ، وناول أَبا عثمان اللِّواء .

ونَزل جماعةُ بنى أُمية فحفُّوا به ، وتحته فرس أَشقر ، معه القوس ، ثم عَبروا النهر يوم الخميس ، فلم يَعرض يوسف لشئ من إجازتهم ، ثم راساهم عشية الخميس بالصُّلح حتى كاد أَن يتمّ ، وكأَنه كان ببَنى أُمية بعض الحِرص على الصلح ، وأَخرج يوسف الغَنم والبقر فذُبحت وصُنع الطعام لهم جميعًا (١) ، لايشكون أَن الصلح تام ، فأَراد إطعام العسكرين ، وظن أَن إطماع ابن معاوية وأَصحابه إياه للصلح لِتَفْتيره عن العَرْض له فى إَجازة النهر .

فلما أَصبحوا غداة الجمعة يوم الأَضحى ...(٢) ماكانوا أَرادوا من الصلح ، ثم تزاحف القوم ، وعلى خيل يوسف من أَهل الشام ومُضر كلّها

---

(١) الأصل : « ليلهم جمعا » .

(٢) بياض بالأصل .

عُبيد الله بن على ، وعلى الرجّالة كِنانة بن كنانة الكنانى ، وجوشن بن الصُّميل ، وأنزل يوسف على جَماعة الرجالة عبدَ الله ابنَه ، وبعث على خيل غِلمانه وصنائعه من البربر خالدَ بن سُودىّ ، غلامه .

وكانت خيلُ يوسف كثيرةً مع خالد من غلمانه ، والبربر وأخلاط الناس ، ومع عبيد بن على بالمَيسرة خيلُ قيس ، فالتقَوا فاقتتلوا قتالا شديدًا ، فلما اشتد الأَمر نظرت اليمنُ إلى ابن معاوية على فرس ، وقد نزل حوله مواليه ، فقال بعضُهم لبعض : غلامٌ حَدث فما يُؤمّننا أَن يطير على هذا الفرس فنَهلك ، فبلغه ذلك حين (١) لفظوا به ، فنادى أَبا صَبَّاح ، فأَقبل إليه ، فقال : ليس فى عسكرنا بَغل أَوفقُ من بغلك ، فإن هذا الفرس يَقْلق تحتى ، فلا أَقدر على ما أُريد من الرَّمى من قوسى ، فخذ فرسى وهات بغلك ، وإنى أَحب أَن تكون تَحتى دابَّة تُعرف إن حالَ الناس — وكان بغلاً أَشهب قد ابيضّ — فاستحيا أَبو صَبَّاح ، فقال : أَويَثْبُت الأَمير على فرسه ؟ فقال : لا والله ، فأَخذ البغل .

فاطمأَنّت اليمن ، وترامَوا عن خيلهم ، وحملوا عليها أَخفَّاءَهم ، واشتدّ القتال ، فشدّ حَبيب بخيله على خيل مَيمنة يوسف والقلب فَهزمها ، وطار خالدبن سُودِىّ ومن معه ، فلما رأَى ذلك عُبيدبن على تداعى إلى النِّزال هو وخالد ، ثم شدَّ حبيب وابن نُعيم بخيل أَهل الشام على القلب ، فقُتل كِنانة بن كنانة ، وعبد الله بن يوسف ، وجَوشن بن الصُّميل ، وطار يوسف والصُّميل ، وثَبت عُبيد فى ميسرة يوسف وجماعة قيس ،

(١) الأصل : « حتى » .

فاقتتلوا حتى ارتفعت الشمس ، ثم انهزموا فقتلوا قتلا ذريعًا ، وقتل عُبيد الله بن علي ووجوه قيس ، لم يبق منهم مِمَّن حضر إلا من لاذِكْرَ له .

وسار ابنُ معاوية حتى أَتى القَصر ، فلم يجد دونه أَحدًا ، وأَقبل عسكرُه فانتهب عسكر يوسف ، وأَكلوا الطعام الذى كان أَعدَّه ، فأَصابوا العسكر وفيه من كُل شئٍ .

وكان ابنُ معاوية قد وَكَل بخالد بن زيد ، وهو محبوس ، رجلين من ضُعفاء (١) بنى أُمية وأَمرهما إنْ حَال الناس أَن يَفْرغا منه ، فكان خالد يقول : ماآليت على الدَّعوة لنفسى قط إلا يومئذ ، كنت أَقول : اللَّهم انصر يوسف ، ثم أَقول : فى نَصره قتلى ، وفى نَصر ابن معاوية هُلكى .

فلم يزل محبوسًا حتى اصطلحا ، فلما دخل ابنُ معاوية القصر لم يجد دونه أَحدًا ، ووجد سَرْعان الناس (٢) قد سبقوا إلى عِيال يوسف فسلبوا وانتهبوا ، فلما جاءَ طَرد الناس ، وكَسا من عَرى منهم ، وردّ مافَدر على ردِّه ، فغضبت اليمانية وساءَهم ، إذ حجر عياله مما كانوا أَرادوه من فَضيحتهم ، وقالوا : عَصَب .

وكان ذلك لم يشتدّ على أَهل العُقول منهم ، وأَضمروا أَن قالوا : قد أَحسن ، وفى أَنفسهم غير ذلك ، وقال بعضُهم لبعض : ويحكم ! قد فرغنا من أَعدائنا من مُضر ، وهذا ومواليه منهم ، فضَع بنا يدًا عليهم ، فيصير لنا فَتْحان فى يوم واحد .

---

(١) كذا .

(٢) سرعان الناس ، بالفتح وإسكان الراء وفتحها : أوائلهم المستبقون إلى الأمر .

فكره كارهٌ ورضى راضٍ وأصفقت قُضاعة على الكراهة ، وأتى ثَعلبة بن عبد . . . (١) الجذامىّ ، وهو يومئذ من وجوه أهل فلسطين من جُذام ، إلا أنه لم يكن يومئذ من قُوّادهم ، كان فيهم رجال فوقه ، فانتصح ابن معاوية وأعلمه بما تشاور فيه القوم من قَتله وقَتل مواليه ، وزعم له أنه فيمن كره ذلك ، وأخبره بإباءة قُضاعة ، وقال له : احترس وضُمّ إليك مواليك ، وقال له : أشدّ الناس كان قولاً فى ذلك ، ودعا إليه أبو الصَّبّاح .

فهذه (٢) يَدُ ثعلبة التى بها شرّفه عبد الرحمن ، فَولّى شرطته يومئذ عبد الرحمن بن نُعيم ، وضم مواليه فجعلهم أحراسه ، وانضم إليه بنو أُمية بقُرطبة ، وكان بها منهم بيوتات لها ، وَفْرٌ وثروة من البربر وغيرهم .

وقد كان يوسف حين أقبل إليه ابنُ معاوية كَتب إلى ابنه عبد الرحمن يأمره أن يأتيه بخيل الثَّغر فى خمسمائة ، فقُضى أنه لقيه يوم الهزيمة من قُرطبة على بريد ، ويوسف يريد طُليطلة ، وسار الصُّميل حتى أتى منزله فى جُنده ، وسار يوسف حتى أتى طُليطلة ، فحَشد من أهلها من خَفّ له منهم ، وكان عامله عليها حينئذ هشام بن عروة الفِهْرى ، فأقبل بمن معه ، وجلس ابن عروة على حاله حتى مر الصُّميل ، فحشد من خَفّ معهما من بقايا مُضر ، وقد وَلّى ابنُ معاوية ذلك الجُند والكورة لحُصين بن الدَّجن ، وولّى كورة دمشق جابرَ بن العلاء بن شِهاب .

---

(١) بياض بالأصل .
(٢) الأصل : « فهذا » .

فلما أَقبل يوسفُ والصُّميل إلى جَيّان تحصَّن فى مدينة مَنْتِيشة ، ولم يتعرضا له إلا أَنهما حَشدا من يُعينهما حتى أَتيا إلبيرة ، فلما بلغ جابرًا قدومهما هرب على إلبيرة ، وانحاز إلى بعض جبالها ، فاجتمع أَهل إلبيرة من قَيس ليوسف ، وبلغ ابنَ مُعاوية نزولُه بإلبيرة ، فحشد الأَجناد ، ثم تحرَّك إليه ، وخلَّف على قرطبة أَبا عثمان فى ناسٍ من يَمن قُرطبة وبنى أُمَيَّتِها .

وقد كان ابنُ معاوية أُهديت له جاريتان ، واشترى ثالثةً وشيئًا من خَدم ، قد كان اتُّخِذ عيالاً ، فلما بلغ يوسفَ ، وهو بجيَّان قبل دخوله إلبيرة ، تحرُّكُ ابن معاوية إليه ، أَمر ابنه عبد الرحمن أَن يُخالفه إلى قُرطبة ، وسار ابنُ معاوية يُريد يوسف بإلبيرة ، وخالفه أَبو زيد فأَغار على قُرطبة ، وحُصر أَبو عثمان فى صومعة المسجد الجامع التى فى القصر ، فاستنزله بعهد أَلا يقاتله ، فكَبَّله وانطلق به ، فأَصاب جاريتى ابن معاوية وهَربت الثالثةُ ، وكان قد اشتراها من أَهل بَيْتٍ من العرب .

فلما حَضر الأَمرُ كَفَوْها (١) وساروا بها وهى حاملٌ بجارية سُمِّيت : عائشة ، وسار أَبو زيد بأَبى عثمان والجاريتين ، فقال له أَهل العُقول من أَصحابه : صَنعتَ مالم تُسبق إليه ، ظَفِر بأَخواتك وأُمهاتك فستر عورتهن وكَسا عُرْيهنّ ، وظَفِرْتَ بخادمتين (٢) فأَخذتهما .

فتبدَّى له سُوء رأْيه ، فأَمر بخِبَاءٍ فضُرب فى قلعة تُدمين (٣) بجوفى

---

(١) الأصل : « أكفوها » .
(٢) الأصل : « بخادمين » .
(٣) لعلها : « تدمير » .

قرطبة ، على ميل من المدينة ، ثم أَنزل فيه الجاريتين وماكان معه من متاعهن ، ومَضى بـأَبى عثمان حتى أَتى أَباه بـإِلبيرة ، وسار ابنُ معاوية لم يُعرِّج على شئ حتى بلغ إِلبيرة إِلى قرية من فَحصها يُقال لها : أَرْملة ، فتراسَلا ، ودعاه يوسفُ والصُّمَّيْل إِلى أَن يُسلما له الأَمر على أَن يـأمنا فى أَموالهما ومنازلهما ، وأَن يُؤَمِّن الناسَ كلهم ، وتهدأَ (١) أُمور الرعيَّة .

فأَجابهما واصطلحا فى سنة أَربعين ، وكُتِب بينهما كتابُ صُلْح .

وأَقبل ابنُ معاوية والصُّمّيل ويوسف ، وسرّح ابنُ معاوية خالدَ ابنَ زيد ، وسرّح يوسف أَبا عثمان ، واشترط ابنُ معاوية على يوسف أَن يَرتهنه ابنَه عبدَ الرحمن أَبا زيد ، ومحمدًا أَبا الأَسود ، فَقبضهما على أَلاّ يَحبسهما إلا حبسًا جميلا معه فى قَصر قُرطبة ، حتى تهدأَ (١) الأُمور ، فإِذا صَلَحت ردَّهما .

فكان ابنُ معاوية ، إِذا ذُكر الصُّميل ، يقول : للهِ بِلاَده (٢) ، لقد صَحِبنى من إِلبيرة إِلى قُرطبة مامَسَّت ركبتُه ركبتى ، ولاتقدَّم رأْسُ بَغله رأْسَ بغلى ، ولااستفهمنى فى حديث ، ولا افتتح حديثًا بغير أَن يسأَل (٣) عنه ، ولايُذكر مثل ذلك عن يوسف .

وذلك أَنهما لما اصطلحا أَقبل يوسفُ عن يمينه والصُّميل عن يساره حتى دخلوا قُرطبة ، فنزل القصر ونزل يوسف بمنزله بلاط الحُرّ ، وكان قبله للحُرّ بن عبد الرحمن الثقفىّ والى الأَندلس ، فيقال : إِن

(١) الأصل : « وتهدى » .

(٢) لعلها : « بلاؤه » .

(٣) الأصل : « يسأله » .

يوسف تجنّى على ابن للحُرّ فقتله وأخذ المنزل ، ويقال : بل اشتراه : والله أعلم

فلما دخلوا قام الناس على يوسف ورَجْوا أَن يُضيِّق لهم عليه ابن معاوية ، فادَّعَوْا رِباعَه وأَمواله ، وسأَلوا أَن يَرُدَّه وإياهم إلى القاضى ، وهو يومئذ يزيدُ بنُ يَحيى ، وكان أَهل الدَّعوات قد رَجَوْا أَن يَحلف لهم القاضى ، لِمَا كان فى نفسه على يوسف والصُّميل مِن قَتلهما اليمنَ يوم شَقُندة ، وكان يزيدُ بنُ يحيى مُسْتَقْضًى من المشرق ومعه سِجِلّ ، فلم يَعرض له يوسف لِرِضى أَهل الأَندلس به ، فضَمّ إليه يوسف والصُّميل وأَهل الدَّعْويات (١) ، فلم يصنعوا شيئًا ، وعجَّزهم لهما ، قيل : إنه عجّز بعضهم فى عشرة أَيام ، فلم يَزد أَهل القوة على ثلاثة آجال ، ثلاثة ثلاثة أَيام ، ثم عَجَّزهم .

فأَقام يوسفُ والصُّميل على أَحسن حال ، يختلفان إلى ابن معاوية ، ويُحضرهما الرأى مرةً بعد مرة .

قال : ودَخل فى تلك السنة عبدُ الملك بن عمر بن مروان ، ويقال له : المَرْوانىّ ، ودَخل جُزَىّ بن عبد العزيز بن مروان ، معهما أَولادهما وبناتهما ، وتتابع ناسٌ من بنى أُمية ومواليهم وكثروا ، وكانت بقُرطبة بيوتات من موالى بنى هاشم وبنى فِهر وقبائل قريش وغيرهم ، كانوا قد نالُوا مع يوسف رِفْعةً ومنازل ، فانقطع ذلك عنهم ، فكانوا يَختلفون إلى يوسف ويُلْقون عليه التَّحريف ويُندِّمونه على ماكان .

---

(١) كذا ، يريد جمع دعوى ، والمسموع : دعاوى ، ودعاو .

فلم يزالوا حتى كاتب الناسَ ، فأَمّا أَهل الأَجناد فقالوا : لا والله ، مانرجع إلى الحرب بعد السَّلم ، وكَره الصُّميل وقيسٌ ذلك ، وقالا : حسبنا ، قد قضينا الذِّمام ولا ، والله ، نخلعه .

فلما يَئس منهم كاتَب أَهل البلد وأَهل ماردة ولَقَنْت ، فأَجابوه ، وبها جُلُّ عيال يوسف ،كانوا نَفروا إليها والى طُليطلة يوم المُصَارة ، فلما صالح عبدَ الرحمن ردّ بعضهمو ترك بعض بناته مع أَزواجهن ومن استثقله من عياله مَعهن ، فأَتته كُتبهن يَدْعونه إلى أَنفسهم ، فهرب سنة إحدى وأَربعين حتى نزل ماردة .

فلما علم ابنُ معاوية بهربه أَتبعه الخيل ، فغاب ، وأَخذ ابنيه فقتلهما ، وأَخذ الصُّميل ، فاحتج أَنه لاذَنْبَ له ، ولو أَنه أَذنب هرب معه ، فقال له : لم يهرُب حتى استطلع رَأْيَك ، وقدكان لنا عليك النُّصح ، فحَبسه .

ومضى يوسف إلى ماردة فحَشد أَهلها : عرَبها وبَربرها ، ثم أَقبل إلى لَقَنْت ، فخالفه (١) أَهلُها ، ثم أَقبل إلى إشبيلية ، وعليها عبدُ الملك ابن عمر المَروانيّ ، فاجتمع إليه ناس من حمص وغيرهم ، وانحاز أَهلُ البلد بأَسرهم إلا قليلا إلى يوسف ، فانتفخ (٢) عسكرُه وصار فى عشرين أَلفًا أَو أَكثر .

فَزحف إلى المروانيّ بإشبيلية ، وقد عسكر ابنُ معاوية بقُرطبة ينتظر الأَجناد ، حتى توافَوْا .

---

(١) الأصل : « فخلفه » .

(٢) الأصل : « انتفخ » .

قال : فلما توافت جُموع يوسف زَحف إلى المروانى ، وهو فى نفر من أَهل الشام ، قد اعتصم بمدينة إشبيلية ، ورأى قِلَّة من معه فأَمِن شرَّهم وشوكتهم ، فرجع مبادرًا للقاء ابن معاوية بمن اجتمع له من أَهل ماردة عربها وبربرها وأَهل لَقَنْت ، ومن تـأَبَّش إليه من أَهل إشبيلية ، وقد عَظُم عسكره وانتفخ .

قال : وتتامت لابن معاوية حشودُه ، وأَقبلت إليه الأَجناد ، فتحرَّك بمن معه حتى نزل بمحلَّة يقال لها : بُرج أُسامة ، وأَقبل يوسفُ إلى ابن معاوية لايَعبأ بمن خَلْفه ، والمروانىّ بإشبيلية مُنتظر (١) لولده حتى قَدم عليه ابنُه عبدالله ، وكان واليًا على مَوْزور(٢) ، فحَشدها ، وهو يرى أَن أَباه محصور ، فأَتاه وقد انكشف عنه الحَصر فأَخبره الخبر وما كان من نُزوله وانقشاعه عنه ، ثم نادى فى الناس ، فقال له (٣) رؤساؤهم : أَمْرنا لأَمر أَبيك تَبع ، فتحرَّكا متى شِئْتُما فخَرج المروانىّ ومعه ولده عبد الله ، فيمن كان معه من أَهل إشبيلية ومَوْزور .

وبلغ ابنَ معاوية الخبرُ ، وماكان من تجرّد يوسف عن المَروانىّ وإقباله إليه ، فتحرَّك ابنُ معاوية حتى نزل المُدوّر ، وبلغ يوسف إلى وادى كذا ، فقيل له : هذا المروانىّ قد نَهد إليك وركب ساقَتَك ، فصَرَف إليه راياتِه ، واستعجل مُكافحتَه خوفًا من أَن يـأتى ابنُ معاوية من وجه والمروانىّ من آخر .

---

(١) الأَصل ، والنفح ، وصفة جزيرة الأندلس : « موررور » براءين ، وما أثبتنا من معجم البلدان . وقد قيدت فيه بالعبارة : «من الوزر» .

(٢) الأَصل : « منتظرا » .

(٣) الأَصل : « لهم » .

وتقاعس المَروانىُّ رجاءً لذلك ، فلم يُمكنه يوسف من التقاعس ، والتقيا من ساعتهما ، فحين التقيَا نزل رجلٌ من موالى فِهْرٍ من البربر من ساكنى ماردة ، أو لَقَنْت ، نَجْدٌ معروف بالنَّجدة ، فدعا إلى النِّزال والبِراز ، فلم يَبْرُز إليه أحد ، فالتفت المَروانىّ إلى عبد الله ، فقال : هذا أول الشر ، ونحن فى قلَّة ، فانزِل على عون الله ، فَنَهض عبدُ الله إلى النزال ، ومعه مولى له لآل مروان بن الحكم حبشى يكنى بأَبى البَصْرِى ، فقال له : أَىَّ شئٍ تُريد يامولاى ؟ فقال له : أُريد النُّزول إلى هذا ، قال له : أنا أَكفيك ذلك يامولاى .

قال : فنزل أَبو البَصْرِىّ إلى البَربرىّ ، وكانت السماء قد رَشَّت برَذاذ ، فالتقيَا فتجاولا ساعة ، وكلاهما جَسِيمٌ شُجاع ، فقُضِى أَن البربرى زَلقت رِجْلاه فَسقط ، وتحامل عليه أَبو البَصْرِىّ فقَطع رجليه بالسيف ، ثم كبَّر القوم وحَملوا حملَة رجُلٍ واحد ، فانهزم يوسفُ من ساعته وتفرَّق مَن معه ، وقُتل قليلٌ ممن كان معه .

وكان أَصحاب المروانىّ أَقلَّ من أَن يَتبعوا هزيمةً ، فكان حُماداهم (١) أَن خلا لهم عن عَسكره ، فانتهبوا وقَتلوا مَن أَدركوا .

فبينا ابنُ معاوية نازل(٢) فى المُدوَّر أَتاه عبدُ الله بن المروانىّ بهزيمة يوسف وبُرؤوس مَن قُتل معه ، فحمد الله وأَعجل رسولا إلى بَدْرٍ فأَمره بإصلاح النُّزل للمروانىّ ، وأَنْ يُضعف له مثلى ماكان أَنزل عليه .

---

(١) يقال : حماداك أن تفعل كذا ، أى غاية ما يحمد منك .

(٢) الأصل : « نازلا » .

وأُعلم عبد الله بن معاوية بجميع أَمرهم ، وما أَظفرهم الله به ومكَّن لهم فيه .

ولم يزل المروانىّ وولده فى عَلْياء إلى (١) اليوم .

ومَضى يوسف إلى فِرِّيش ثم إلى فَحص البَلُّوط ، ثم واقع مَحجَّة طليطلة يُريد ابن عُروة ليأمن عنده ، وهو إلى طُليطلة على عشرة أميال ، فَمَرّ بعبد الله بن عُمر الأَنصارىّ ، وهو بقَرية من قُرى طُليطلة ، فقيل له : هذا يوسفُ منهزم ، فقال لأَصحابه : ويحكم ، اخرجوا (٢) بنا نقتله ونُرِحْ(٣) الدنيا منه ونُرحه (٤) من الدنيا ونُرِح (٥) الناس من شره ، فقد صار رجلاً ناجشًا (٦) للحرب .

فخرج حتى لَحقه ، وليس بينه وبين مدينة طُليطلة إلا أَربعة أَميال وليس معه إلا سابقٌ الفارسى ، مولى لبنى تميم ، ومن يَجهله يقول : مولى يُوسف ، وبقيَّته بِسَرَقُسطة ، ووصيف واحدٌ فقط ، وقد ماتُوا من من شدة الركض ، وليس معهم مَنْعه ولا مَدفع .

فقَتل عبدُ الله يوسفَ الفِهْرِى ، وقُتل سابق ، وهَرب الغلام حتى دَخل طُليطلة .

---

(١) علياء : شرف .
(٢) الأصل : « أخرج » .
(٣) الأصل : « ونربح » .
(٤) الأصل : « ونريحه » .
(٥) الأصل : « ونريح » .
(٦) يريد : مثيرا . والناجش : من يثير الصيد ليمر على الصائد .

ثم أقبل عبد الله بن عمر برأس يوسف ، فلما بلغ ابنَ معاوية إقبالَ عبدِ الله بنِ عمر برأْس يُوسف أَمر بضَرب عنق عبد الرحمن بن يوسف ، المكنَّى بأَبى زيد ، وكان عليه حَرِدًا ، لِمَا صَنع بعياله ، ثم أَخرج رأْسه إلى رأْس أَبيه ، فلُقِّى رأْس أَبيه برأسه .

واستصغر أَبا الأَسود فحَبسه ، ثم قَضى الله أَن هَرب من الحبس ، فأَثار عليه بعد ذلك ، إلى سبع وعشرين سنة حَرب فَسْطلونة .

وسيأْتى ذكر ذلك إن شاءَ الله .

وكان ابنُ معاوية ، لمَّا صَنع أَبو زيد بعياله ماصَنع وترك الجاريتين ، كَرِهِهما ، فأَعطى إحداهما مولاه عبد الحميد بن غانم ، وهى أُم عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم ، واسمها : كلثم ، وأَعطى الأُخرى لغيره ، ولم يرجعهما .

فهذا تَوقيع من حديثهم على وجه النَّسق ، وكانت الأُمور أَكثر من أَن تُستوعب .

ثم أُدْخِل على الصُّميل فى الحَبس ، بعد قَتل عبد الرحمن بن يوسف ، فخُنِق ، فأَصبح فى الحبس ميتًا ، وأُخرج إلى داره ، ودَفنه أَهله ، وانقضى أَمره وأَمرُ يوسف وابنِه عبد الرحمن .

وبَقى محمد هاربًا فى الأَرض .

ثم ثار بعد قَتل يوسف ، إلى سنة وأَربعة أَشهر ، رِزْق بن النعمان الغَسانى على الأَمير عبد الرحمن بن معاوية ، ثم ثار بعد قتل رِزْق إلى سنة هشامُ بن عروة الفِهْرى بطليطلة ، وكان معه حَيْوَة بن الوليد التُّجيبى ، والعمرىّ من ولد عُمر بن الخطاب ، رحمه الله .

فخَرج إليه الأَميرُ عبدُ الرحمن إلى طُليطلة ، فحاصره فيها ، فلما عَضَّتْه الحربُ وناله الحِصار دعا إلى الصلح ، وأَعطى ولده رهينة(١) ، ورجع عنه الأَميرُ ، فلما انصرف عنه خَلع أَيضًا وعاد إلى نفاقه ، فغزاه الأَميرُ السنة الثانية ، فنزل به وحاربه ودعاه إلى الرجوع فَصبر ، فلما يَئس منه مر بابنه الرَّهينة فضُربت عُنقه (٢) ، ثم جَعل الرأْس فى المَنْجنيق ورَمى به إليه ، فسقط فى المدينة ، ورجع عنه ذلك العام .

فلما حال الحال ثار عليه العَلاءُ بن مُغيث اليَحْصُبِى ، ويقال : حَضرمى ، بباجة ، وسَوّد (٣) ودعا إلى طاعة أَبى جعفر ، وكان قد بَعث إليه بلواء أَسود فى سنّ قناة قد أَدخله إهليلجة (٤) وطَبع عليه ، فأَخرجه العلاء فجعله فى رُمح ، وقام به فى جُند مصر .

وساعده على غَيِّه واسطُ بنُ مُغيث الطائى ، وأُميّة بنُ قَطن الفِهْرىّ ، فأَقبلت اليمانيةُ حتى صاروا بإشبيلية ، فاتهموا أُمية بن قَطن ، فأَخذوه وكَبَّلوه وخرج الأَميرُ إليهم ، واجتمعت إليه الحُشود ، وأَقبل حتى نزل بقَرية القوم بقَلعة زَعْوَاق ، وأَقبل غِيَاثُ بنُ علقمة اللَّخمى من شَذونة ممدًّا لهم ، فلما سَمع بخبره الأَميرُ بعث إليه بدرًا مولاه فى قَطِيع (٥) من

---

(١) الأصل : « رهنة » .

(٢) العنق ، مذكر وقد يؤنث ، وهو هنا على الثانية .

(٣) سود ، أى : لبس السواد ، وكان شعار العباسيين .

(٤) الأصل : « اهليجة » . وظاهر أنها محرفة عما أثبتنا . والاهليلجة واحدة الإهليلج ، وهو ثمر معروف .

(٥) القطيع : الطائفة من الغنم والنعم ونحوهما .

عَسكره ، فقُطع به ، فنزل فى الوَلَجة (١) التى بين وادى أَيْره (٢) والنَّهر الأَعظم ، ونازله بدر ، فتراسلا حتى انعقد بينهما صُلح ، ورَجع غِياث ابنُ عَلقمة اللَّخمى إلى بلده ، ورَجع بَدْرٌ إلى الأَمير .

فلما بلغ القوم الخبرُ قالوا : ليس لنا إلا مدينة قَرمونة ، فَعَبَّوْا (٣) على الخُروج إليها ليلاً ، وجاء الخبرُ إلى الأَمير ، فبعث بدرًا وقال له : ابتدر إلى المدينة ، وارفع رَأْس قُبتك على باب قَرمونة ، واجمع إليك أَهل الطاعَة إلى أَن نُوافيك غُدوةً .

ورَكب الأَميرُ من سَحَر طويل (٤) فأَصبح على ظُهر ، وتباطأَ القومُ فأَصبح القوم فى الشِّعرى (٥) تحت قَرمونة ، فلما نَظر إلى القُبة مضروبة على باب المدينة عَلم أَنهم قد بَدَرُوا إليها ، فماجُوا ، وتَطلَّعت (٦) عليهم خيلُ العسكر فانهزموا وقُتلوا قَتْلاً ذريعًا ، وأُصيب أُمية بنُ قَطَن مُكبَّلاً ، فمنّ عليه الأَميرُ وأَطلقه ، وقَطف من رؤوسهم سَبعة آلاف رأْس ، فَمَيَّز رؤوس المعروفين ، ورأَس العلاء ومثلَه ، ثم كَتب باسم كل واحد بطاقة ثم عُلِّقت من أُذنه .

---

(١) الوجلة ، محركة : معطف الوادى .
(٢) الأصل : « أبره » ، بالباء الموحدة ، تصحيف .
(٣) عبا الجيش عبوا ، وعباه تعبية : هيأه .
(٤) كذا .
(٥) الأصل : « الشعراء » ، تحريف . والشعرى : كوكب يطلع عند شدة الحر .
(٦) تطلعت : طلعت .

ثم أَجزل العطيَّة لمن انْتَدَب لِحَمل تلك الرُّؤوس إلى إفريقية ، فجَمعها فى أَخْرِجة (١) ، ورَكِب فيها البحرَ حتى انتهى إلى القيروان ، فطرحها ليلاً فى السُّوق .

فلما أَصبح الناسُ وجدوها ، ووجدوا كتابًا مكتوبًا بالخبر فى الخُرْج ، فانتشر ذلك حتى بلغ أَبا جَعفر .

ثم رجع الأَميرُ ، وبعث بعد ذلك بدرًا مولاه وتمَّام بن علقمة ، فى جيشٍ إلى طُليطلة ، فحاصر هشامَ بنَ عروة ، وقطع الأَميرُ البُعوث على الأَجناد ، وجعلها بينهم دُوَلاً فى كلّ ستة أَشهر ، فإذا انقضت دَولة نَدب أُخرى ، حتى ملّ أَهلُ المدينة الحصار ، واستثقلوا الحرب ، وكاتبهم مع ذلك تمَّامٌ وبَدْرٌ ، فأَسلموا هشامًا والعُمرىّ وحَيْوة وبَرُّوا بهم .

فخرج تمَّام يريد تَبليغهم إلى قُرطبة ، وأَقام بدرٌ فى موضعه منتظرًا لرأى الأَمير فى المدينة ، فلما صار تمَّام بأُورِيط لقى عاصمَ بنَ مُسلم الثقفى ، فأَمره بالرُّجوع إلى مدينة طُليطلة واليًا عليها ، وأَن يَقْفِل بدر ، وقَبض منه القوم .

فرجع تمَّام بما أَعلمه به ابنُ مُسلم مِن رَأْى الأَمير ، وأَقبل الثَّقفىّ بالقوم حتى حلّ بقرية حَلْوَة ، فأَمر الأَميرُ العبدىَّ ، وكان صاحب الشرطة ، فأَخذ لهم جُبَّة جُبَّة من صوف ، وأَخذ معهم حجّامًا وحَميرًا ، ثم مضى إليهم فحلق رؤوسهم ولِحاهم وأَلبسهم الجُبب ، وأَدخلهم فى سِلال ، ثم حَملهم على الحمير وأَدخلهم قُرطبة .

---

(١) المسموع فى جمع « خرج » ، لذلك الوعاء المعروف : خرجة وأخراج .

فقال العُمرىّ ، وكان ضعيفًا ، لِحَيْوة ، لقد أُلبستُ جبةً ضيقة ، فقال له حَيوة : ليتك تُرِكْتَ تُبليها .

ثم أَمر بهم الأَمير فقُتلوا وصُلبوا .

ثم ثار بعد ذلك سعيدُ اليَحصبىّ ، المعروف بالمَطرىّ ، بلَبْلة ، وذلك أنه سَكر ليلةً فذُكر عنده قتلُ اليمانية مع العلاء ، فاعْتَقد(١) فى رُمحه لواءً ، فلما أفاق من سُكره ونظر إلى العُقدة قال : ماهذا ؟ قيل له : اعتقدتَ البارحة هذا اللواء غضبًا بقتل قومك ، فقال : حُلُّوا العقدة قبل أن يُرْفَع خبرُها ، ثم بدا له فقال : ماكنتُ لأَرجع عن رأى ، وكان نَجْدًا ، فأَرسل إلى قومه ، فاجتمعت إليه جماعةٌ ، وأَقبل حتى دخل قلعة رَعْواق ، وأَقبل الأَميرُ ، إذ انتهى إليه خبرُه ، حتى نزل به ، فخرج المَطرىّ يقاتل ، فاستلحم هو وسالمُ بنُ معاوية الكَلاعىّ ، فاستخلف القومُ على أنفسهم خليفَة بن مروان اليَحْصُبِىّ ، فاستأْمن لنفسه وللقوم ، فأَمَّنهم الأَمير ، وخَرجوا من القلعة ورَجع الأَمير .

ثم ثار أَبو الصَّبَّاح ، وكان سَبب ثَورته أَنّ الأَمير قد كان ولّاه إشبيلية ثم عزله ، فنَقِم ذلك ، فأَلَّب وكاتب الأَجناد ، فما انتهى الخبرُ إلى الأَمير ، وبَعث إليه بكُتبه من غير موضع ، أَعمل الحِيلة فى استقدامه إلى قُرطبة ، فذُكر أَن عبد الله بن خالد سار إليه بعهده ، فقَدِم به ، فلما قَتله الأَمير اعتزل عبدُ الله ولزم منزله الفُنْتِين حتى مات ، لم يَعمل للسلطان عَمَلاً .

---

(١) اعتقد : عقد . (٢) كذا .

ويُقال : إنّ تمَّام بن علقمة استقدمه على اللُّطف به من غير عَهد، فلمَّا قَدِم قُرطبة أدخله الأَميرُ على نفسه ، وكان معه أَربعمائة فارس من جُنده ، فعاتبه ، فأَغلظ للأَمير (١) وتهدّده ، فشاوره الأَميرُ ودعا جاريةً سوداءَ مدنية كانت قَيّمته ، وكانت تُصلح عليه من حال الجوارى وتتولّى حملهن على أَدبه واستحسانه ، فأَتته بِخَنجر ، وقد كان الشيخُ همّ أَو كاد يَبسط يده، وأَمر الفتيان به ، ثم طُعن فى أَوداجه بالخنجر حتى أوهنه ، ثم قَتله الفتيان ، وأَمر الأَمير بلفّه فى مِسْح (٢) شَعر وتَنْحيته وتَغيير أَثر دمه ، ثم أَدخل وزراءَه فاستشارهم فى قتله ، ولم يُعلمهم إلّا أنه محبوس عنده، فلم يُشر عليه منهم أَحد بقتله وقالوا له : على الباب أَربعمائة فارس ، وجند الأَمير غائب ، ولانأمن أَن يَحْدُث من ذلك بلاء ، إلا أَنّ المروانىّ أَشار عليه بقتله ، وله فى ذلك أَبيات من شِعره ، وهى :

لايُفْلِتنْك فيأْتينا ببائقـةٍ أَشْدُد يَدَيْك به تَبْرأْ من السَّقَمِ

فقال لهم : قد قتلتُه ، ثم أَمر برأْسه فأُخرج ، وصاح الصائح على أَصحابه : إنّ أَبا الصَّبَّاح قد قُتل ، فمن أَراد أَن يَلحق ببلده فَلْيَلحق آمنا ، فافترقُوا ولم يَكُن حَدَثٌ .

ثم ثار الفاطمىُّ بعد ذلك إلى أَربع سنين ، وكان اسمه سُفيان ابن عبد الواحد المِكْناسىّ ، وكان اسم أُمه فاطمة ، وأَصله من لَبْدانية (٣)،

(١) الأصل : « الأمير » .
(٢) المسح ، بالكسر : الكساء من شعر .
(٣) الأصل : «.لجدانية » . (البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، لابن عذارى المراكشي ٢ : ٧٥) .

مُعلّم كتاب ، فادّعى أنه فاطميّ ، فوثب على سالم أَبي زَعْبل ، عامل ماردة ، ليلاً فقَتله ، وغَلب على ناحية قُورِيّة وأَفسد يمينًا وشمالا ، فخَرج إليه الأَمير الغَزاةَ التى تُسمَّى : غَزاة الدَّوْر (١) ، فَهرب إلى المَفاز فدوّخ الأَميرُ البلدَ ووَطئه ، وأنزل بكُل من شايعه ، أَو دخل فى شئ من أَمر النَّكال ، وهو يُخرِّب ويَحرق ويَنسف ، حتى قَدِم عليه كتابٌ من قُرطبة من عند بَدر مولاه ، وكان يَخْلُفه ، يذكر أَن حَيْوة بن مُلاَمِس ثار فى إشبيلية فى أَهل حِمص ، وكان حضرميًا ، وثار معه عبد الغافر اليَحصبى ، وكان مع الأَمير فى العسكر من رجال إشبيلية مَلْهب الكَلبى ، وابن الخَشْخاش ، وابنه ، فما قرأ الكتاب قَفل وأَغَذَّ (٢) السَّيْر حتى نزل المُصَارة فقبض (٣) على ثلاثين رجلا من أَهل إشبيلية ، فيهم الذين سَمَّينا ، وأمر بهم (٤) إلى الحبس ، ثم مَضى إلى القوم ، وكانوا قد أَقبلوا حتى نزلوا بِمَيْسَر ، وخَندقوا على أَنفسهم ، فنازلهم الأَميرُ فحاربهم أَيَّامًا ، وكان معهم بَربر الغرب (٥) ، فأَمر بنى مَيمون بمُكاتبتهم وأن يعدوهم بحُسن رأى الأَمير ، ثم وَضع الشِّراءَ فى المماليك واللَّحق ، فتاب (٦) الناس إليه وسارعوا نحوه ، حتى صار منهم فى ديوانه جماعة

---

(١) كذا .

(٢) الأصل : « وأخذ » .

(٣) الأصل : « فتقبض » .

(٤) الأصل : « وأمرهم » .

(٥) الأصل : « العرب » .

(٦) الأصل : « فتاب » .

فأَمر بحَربه ، وأَوصت البربر إلى بنى ميمون ، إذ ملّت الحصار والقتال : إنّا سنَنْهزم غدًا بالناس إذا نشبت الحرب فَلْيُبْقِ علينا .

فلما كان من الغد واستحرت الحرب فَعل ذلك البربر وجَرُّوا الهزيمة ، فلم يُبْق على أَحد ، لا بربرىّ ولا عربى ، وأَخذهم بالسيف ، فقُتلوا قتلاً ذريعًا ، لم يُعلم قَتْلٌ مثله كان أَكثر من قَتل المسوّدة مع العلاء ، وقُتل حَيْوة ، وأَفلت عبد الغافر فَركب البحر ولَحق بالمشرق .

وكَتب الأَمير إلى بدر أَن يقتل الثلاثين رجلاً الذين كان أَمر بحبسهم ، فقتلهم ، فعندذلك اشترى بَزيعا ، (والد) (١) ، الحارث بن بَزيع ، قاتَل فأَبلى وأَجْزأَ وظَهرت منه نجدة ، فقال له الأَمير : عبدٌ أَنت أَم حُر ؟ فقال : بل عبد ، فأَمر بشرائه ، فاشْتُرِى وعرّفه فى عَرافة السُّود ، وهى كانت العَرَافة فى ذلك الدَّهر ، لاتُعرف العَرافة التى هى اليوم ، إلى أَن أَخذ بها الأَمير الحَكَم ، رحمه الله .

وإنما كان الناس صِنفان : فُرسان ورجّالة ، فكُل مَن رَكب فأَمْرُه إلى صاحب الرجَّالة عبد الحميد بن غانم ، لايُعرف فُرسان ولاحَرَس كما هم .

ثم غزا الأَمير ذلك العام فى إثر الفاطمىّ ، فهرب الفاطمى حتى أَمعن فى المَفاز وجاوز القصر الأَبيض ، فرَجع الأَميرُ .

ثم ثار عليه يحيي بنُ يزيد بن هشام ، الذى يُقال له : اليزيدى ، وعُبيد الله بنُ أَبان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، وساعده ابن ديوان الحِيشانىّ ، وابنُ يزيد بن يحيي التُّجيبي وابن أَبى غريب (٢) ،

---

(١) تكملة يقتضيها السياق .   (٢) الأصل : « عريب » .

فلما اجتمعوا على الخُروج عليه تدلّى مولًى لعبيد الله من السُّور ليلاً ، وكان مُسلمًا ، وأَقبل (إلى) (١) القصر إلى بدر ، وكان الأَمير متنزِّهًا بوادى شَوْش على الصَّيد ، فأَخبره لخبر ، فبعث بدر بريدًا إلى الأَمير بالخبر ، فدعا سماعة ، مولاه (٢) ، وصاحب خيله ، وقال له : امْضِ فيمن أَمكنك من أَصحابك إلى عُبيد (الله) (٣) بن أَبان فاقبض (٤) عليه ، ودعا عبد الحميد ابن غانم ، صاحب الرجّالة ، فقال له : فاقبض (٥) على يحيى بن يزيد ، فأَقبل كل واحد منهما حتى قبض (٦) على صاحبه ، فأَقبل الأَمير فنزل الرُّصافة ، فأَمر بهما إلى الحبس ، وتتبَّع الآخرين ، فلما جَمعهم أَمر بضَرب أَعناقهم ، وسُحبت جيفهم من رصافة إلى الحَصَا بقُرطبة .

ثم ثار على الأَمير إلى سنة عبدُ الرحمن بن حَبيب الفِهرىّ ، الذى كان يقال له : السِّقْلابىّ ، بتُدمير ، فكاتب سُليمان الأَعرابى الكَلبى ، وكان ببَرْشلونة ودعاه إلى الدُّخول فى أَمره ، فكتب إليه الأَعرابى (٧) : إنى لاأَدع عونك ، فامتعض الفهرىّ من جوابه ، إذ لم يُجمع له ، فغزاه ، فهزمه الأَعرابى ، فكرّ الفِهرىّ إلى تُدمير ، فخرج إليه الأَمير فدَرَس

(١) تكملة يستقيم بها الكلام .
(٢) الأصل : « موراليه » .
(٣) تكملة يقتضيها السياق .
(٤) الأصل : « فتغرض » .
(٥) الأصل : « فتقبض » .
(٦) الأصل : « تقبض » .
(٧) الأصل : « العرابى » .

تدْمِير (١) ، فنزع إلى الفِهرى رجل من البرانس ، من أَهل أُوريط ، يقال له سجعان (٢) ، فصار من أَصحابه ، وظهرت له منه نصيحة ، حتى صار من ثقاته واطمأَن إليه ، فاغتاله البُرنسىّ فقتله وأَخذ خيله ، ونَزع إلى الأَمير .

ثم وجّه الأَميرُ تمَّامًا ، وأَبا عثمان ، فى عَسكر إلى الفاطمىّ ، وهو فى حِصنه ، فقدّما إليه وجيهًا الغسانىّ رسولا ، وكان ابن أُخت أَبى عثمان ، فدعاه الفاطمىّ إلى أَمره ، فأَجابه ، وأَقام عنده حتى أَقبل تمَّام وأَبوعثمان فى عسكرهما ، فنازلا الفاطمىّ ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، كان الظَّفَر فيه للفاطمى ، ثم قَفل عنه العَسْكَر ، ومضى الفاطمى إلى جهة شَنْتَمرية فنَزل بها ، فى قَرية يُقال لها : قَرية العُيون ، فاغتاله أَبو مَعن داوود ابن هِلال ، وكِنانة بن سَعيد الأَسود ، فقَتلاه ، وهرب وجيه الغسانى فحَلّ بساحل إلبيرة ، فأَرسل إليه الأَميرُ شُهَيْدًا ، وعبدوس بن أَبى عثمان ، فوافياه (٣) يوم عيد فى حال اغترار فقَتلاه .

وكان الأَمير إذ وَجّه شُهيدًا وعبدوسًا إلى وَجيه ، قد وجه بدرًا إلى إبراهيم بن شَجرة البرنسى المَروانىّ ، فغشيه أَيضًا بدر فى منزله فى اليوم الذى غَشِى فيه شهيدٌ وعبدوسُ وجيهًا ، فقاتل قتالاً شديدًا وكان نَجْدًا ، حتى قتله بدر .

ثم ثار على الأَمير السُّلمىُّ ، وذلك أَنه كان حسنَ المنزلة عند الأَمير

(١) درس تدمير ، أى شدد الوطأة عليها .

(٢) كذا وردت هذه الكلمة مهملة النقط .

(٣) الأصل : « فرفياه » .

فسكر ليلة فأَقبل فوجد باب المدينة قد قفِل ، فأَراد أن يفتح باب القَنطرة فثار إليه الحرسُ ، فحَمل عليهم بالسيف ، فانتهى الخبرُ إلى العبدىّ ، وذلك ليلٌ ، فأَمّنه وسكّنه بما كان فيه من السُّكر ، فلما أفاق من سُكره ، وفَهم فِعْلَه ، خاف الأَمير فهرب نحو الشرق فتحصَّن بموضع رجاء التحرُّز فيه ، فبَعث الأَمير فى تَبَعه حبيبَ بنَ عبد الملك القُرشىّ ، فغشيه ، فبرز إليه ودعا إلى البِراز ، فبرز إليه أَسودُ كان لِمُغيث ، فاختلفا ضَربَتين فماتا معًا .

ثم ثار الرُّماحِس بنُ عبد العزيز الكِنانى ، وكان والى الجزيرة ، فاعتقد (١) يوم الاثنين ، وجاء الخبرُ إلى الأَمير يوم الجمعة ، فخرج إليه يوم السَّبت ، فلم يَشعر الرُّماحِس يوم الأَربعاء إلى عشرة أيام من خلعانه (٢) حتى طلعت (٣) عليه الخيل، وكان فى الحمام قد اطّلى بالنُّورة ، فطَرح النُّورة عن نفسه ، ودخل بأَهْله فى مَرْكب فجاز فى البحر ، حتى قدم على أَبى جَعفر المَنصور .

ثم ثار سليمانُ الأَعرابى بسَرَقُسطة ، وثار معه حُسين بن يحيى الأَنصارىّ ، من ولد سعد بن عُبادة ، فبعث إليه الأَميرُ ثَعلبةَ بن عَبد فى جيش ، فنازل أَهل المدينة وقاتلهم أيامًا ، ثم إن الأَعرابىّ طلب الفُرصة من العَسكر ، فلما وضع الناسُ عن أَنفسهم الحرب ، وقالوا : قد أَمسك عن الحرب وأَغلق أَبواب المدينة ، أَعدّ خيلاً ، ثم لم يشعر

(١) كذا .
(٢) يريد خلعه لطاعة الأمير . والمسموع : خلع .
(٣) الأصل : « طلقت » .

الناس حتى هجم على ثَعلبة فأَخذه فى المظِلة ، فصار عنده أَسيرًا ، وانهزم الجيش .

فبعث به الأَعرابى إلى قَارُلَة ، فلما صار عنده طَمع قارُلَة فى مدينة سَرَقُسطة من أَجل ذلك ، فخرج حتى حلَّ بها ، فقاتله أَهلُها ودفعوه أَشد الدَّفع ، فرجع إلى بلده .

وخَرج الأَمير غازيًا إلى سَرَقُسطة ، فلما صار فى المحلة ، دون فَجِّ أَبى طويل ، فاخَرحَفْص بنُ مَيْمون غالبَ بنَ تمَّام ، ففضَّل مَصْمُودة على العرب ، فضَربه غالبُ بالسيف فقتله ، فلم يكن من الأَمير فى ذلك نَكير .

ومضى فى غَزاته حتى حل بقَرية شَنْتَمْرية ، فأَخذ بها ناسًا بلغت عدَّتُهم ستة وثلاثين رجلاً ، منهم هلالُ ، وفات ابنُه داود ، قاتل الفاطمىّ ، فردَّهم إلى قرطبة ، وحُبسوا فى دارٍ فى المدينة ، وهو موضع الحبس الموضُوع (١) بسببه .

ثم مَضى ، فقَبْل أَن يبلغ سرقسطة عَدا حُسينُ بنُ يحيى الأَنصارى على الأَعرابى يوم جُمعة فقتله فى المسجد الجامع ، وصار الأَمر لحُسين وحده ، فنزل به الأَميرُ ، وكان عَيْسُون بن سُليمان الأَعرابى قد هَرب إلى أَرْبُونة ، فلمَّا بلغه نزولُ الأَمير بسَرَقُسطة أَقبل فنَزل خلف النهر ، فنظر يومًا إلى قاتل أَبيه قد خرج عن المدينة ، وصار على جُرْف الوادى ، فأَقحم عَيْسونُ فرسًا له كان يُسمِّيه الناهد ، فخَلفه (٢) وقتله ، ثم رجع إلى أَصحابه ، فسُمِّى ذلك الموضع إلى اليوم : مخاضة عَيْسون .

---

(١) الأصل : « الموضع » .

(٢) خلفه : أخذه من خلفه . وفى الأصل : « فخلف » .

ثم استدعاه الأَميرُ حتى صار فى عسكره وحارب سَرَقُسْطة معه ، فلما ضاق أَهلُ المدينة من الحِصار طلب حسينٌ الصُّلح ، وأَعطى ابنه رهينةً ، فقبل ذلك الأَميرُ منه ورَجع عنه .

وكان اسم ابنه ذلك سعيدًا ، وكان نجدًا ، فلم يَقم فى عَسكر الأَمير إلا يومًا حتى أَعمل الحيلة ، فهرب إلى أَصهارٍ (١) له فى أَرض بَلْيارش .

ومَضى الأَمير فدَّوخ بَنْبَلُونة وقَلنبيرة ، وكرّ على البُشْكُنس ، ثم على بلاد الشرطانيس ، فحل بابن بَلَسْكوط ، فأَخذ ولده رهينةً وصالحه على الجزية .

وخاف الأَميرُ على عَيْسون فأَمر بضَمّه إلى الحَبس ، وكان وَهْب الله ابن ميمون إذ قَتل غالبُ بن تمّام أَخاه حفصًا ، قد قال : والله لئن لم تَغضب لنا قُريش ليغضبنّ لنا سبعون أَلف سيف ، فأَمر بحَبسه .

فلمَّا رجع الأَمير إلى قُرطبة قَعد فى عِلِّية فى الرُّصافة ، ثم دعا بوهب ابن ميمون فأَمر بقَتْله ، ودعا بعَيْسون ، فلما أَقبل قال : عندى نَصيحةٌ ، فقيل له : قُلْ نَصيحتك ، فليس يصل إلى الأَمير أَحد ، وكانت معه سكِّين قد أَعدَّها ، أَراد قتل الأَمير ، فلمَّا لم يصل إليه تحوَّل فطعن الفَتى الذى كان كلَّمه فجرحه جَرْحةً مات منها ، وجال فى الجنان جَوْلة ، وقد تحاماه الأَعوانُ ، فأَقبل يوسفُ صاحب الحمَّام ومعه عُودٌ كان يَسْجُر به النار ، فضرب به الرأْسَ حتى قَتله .

ثم أَمر الأَميرُ بسحب جيفته وجيفة وَهْب بن ميمون من رُصافة إلى موضع الحَصا على النهر بقُرطبة ، وصُلبا تحت القصر .

---

(١) الأصل : « أطيار » . ولعلها محرفة عما أثبتنا .

فلما صار ولدُ حُسين عنده عاد إلى نِفاقه ، فخرج إليه الأَمير غازيا إلى سَرَقُسطة ، فعند ذلك نَصَب عليه المجانيق من كل جانب ، فيُقال إنه حفَّها بستة وثلاثين منْجنيقا ، وضيّق على أَهلها أَشدَّ الضِّيق ، فترامى القوم إليه ، وأَسلموا إليه حُسَيْنًا ، فلم يُقتل من أَهل المدينة غيرُه ، وغيرُ رجل كان يُسمِّيه ، من أَهلها ، يقال له : رزْق ، من البَرانس ، فقطع يديه ورجليه فمات .

ثم رجع إلى قُرطبة فحلَّ فى الرُّصافة .

وكان ابنُ أُخته مغيرة بن الوليد بن معاوية قد أَراد الثَّورة عليه ، وساعده هُذَيلُ بنُ الصُّميل بن حاتم ، فأَتى الأَميرَ علاءَ بن عبد الحميد القُشيرىّ فأَخبره الخبر ، فَبعث فى مُغيرة وهُذيل ، وكُل من أَراد ذلك ذلك الرأْىَ ، فاستنطقهم ، فأَقرُّوا فأَمر بقَتلهم .

ثم رحل عن رُصافة إلى القصر .

ثم ثار محمدُ بن يوسف أَبو الأَسود ، فأَقبل فيمن اتَّبعه من أَهل المشرق ، حتى حل مدينة قَسْطلونة ، فخرج إليه الأَمير ، فنازله بها أَيامًا حتى فَضَّ جمعه ، فانهزم ، وقُتل من أَصحابه أَربعة آلاف ، فأَخذ إلى ناحية قورية ، فاتَّبعه الأَمير من سنته ، فهرب إلى المفاز ، فأَدرك له عيالاً فأَخذهم ، وقَتل له رجالا ، وداس البلاد بالخَراب ورج (١) ، وكانت آخر غزواته .

ثم مات الأَميرُ عبد الرحمن بن معاوية ، رحمه الله ، بعد ثلاث وثلاثين سنة وثلاثة أَشهر من ولايته .

---

(١) الأصل : « ورجعت » .

كتب إلى عبد الرحمن بن معاوية بعض مَن وَفد عليه من قريش يَسْتقصره (١) فيما يُجريه عليه ، ويسأل له الزيادة ، ويَستطيل عليه بدالّة القرابة ، فكَتب إليه :

شَتَّان (٢) من قام ذا امْتعاضٍ مُنْتَضى الشَّفْرتَين نَصْلاَ
فجاب (٣) قَفْرًا وشَقَّ بَحْـرًا مُسامِيًا لُجَّةً ومَحْـلاَ
فَبَزّ مُلْكًا وشادَ عِـزًّا ومِنْبَرًا للخِطـاب فَصْلا
وجَنَّد الجُنْـدَ حين أَوْدَى ومَصَّر المِصْر حين أَخْلى(٤)
ثم دَعا أَهلَـه جَميعًـا حيثُ انتَوَوا(٥) أَنْ هَلُمّ أَهْلاَ
فجاءَ هذا طريدَ جُـوعٍ شريدَ سَيفٍ أُبيد قَتْـلاَ
فنال أَمْنًا ونال شِبْعًـا ونال (٦) مالاً ونال أَهْلا(٧)
أَلم يكُن حَقٌّ ذا على ذا أَعظم (٨) مِن مُنْعِمٍ ومـولى

وكان خارجًا إلى الثَّغر فى بعض غزواته ، فوقعت غَرانيق (٩) فى

---

(١) استقصره : عده مقصرا .
(٢) العقد الفريد (٤ : ٤٨٨ ، طبعة لجنة التأليف) : « ما حق » .
وفى البيان المغرب (٢ : ٦١) : « سيان » .
(٣) العقد : « فجاز » .
(٤) أخلى : خلا .
(٥) العقد : « انتأوا » .
(٦) العقد : « وحاز » .
(٧) العقد : « وضم شملا » .
(٨) العقد : « أوجب » .
(٩) الغرانيق : طيور مائية بيض طويلة السيقان لها قنازع ذهبية اللون ، الواحد : غرنوق .

جانب من عسكره ، وأتاه بعض من كان يعرف كَلَفه بالصيد يُعلمه بوقوعها ، ويُشهِّيه بها ، ويحُضّه على اصيطادها ، فأَطرق عنه ثم جاوبه :

دَعْنى وصَيْدَ وُقَّع الغَرَانِقْ
فإن هَمِّى فى اصطيـاد المَارِقْ
فى نَفَقٍ إن كان أَوفى حَالِقْ
إذا التظَتْ هَوَاجِرُ الطَّرائِقْ
كان لِفَاعِي ظِلَّ بَنْدٍ خافِقْ (١)
غَنِيتُ عَن رَوْضٍ وقَصْرٍ شاهِقْ
بالقَفْر والإِيطـان فى السُّرادِقْ
فقُلْ لِمَنْ نام على النَّمَـارِقْ
إنَّ العُـلاَ شُـدَّتْ بِهَمٍّ طـارِقْ
فاركَبْ إِليها ثَبَجَ المَضَايِقْ (٢)
أَوْلا فأَنت أَرْذَلُ الخَـلائِقْ

قال أَبو جعفر عبد الله بن محمد، الملقّب بالمنصور، يومًا لأَصحابه : مَن صَقْر قُريش ؟ قالوا : أَميرُ المؤمنين الذى راضَ المُلْك ، وسكَّن الزَّلازل ، وحَسم الأَدواءَ ، وأَبادَ الأَعداءَ (٣)، قال : ماصَنعتم شيئًا ، قالوا :

---

(١) اللفاع : ما يجلل به الجسد كله ، كساء كان أو غيره . والبند : العلم الكبير .

(٢) الثبج : وسط الشىء .

(٣) مكان هذه العبارة (وأباد الأعداء) فى الأصل : « وأقاد بالا » . وما أثبتنا من العقد الفريد (٤ : ٤٨٨) .

فمعاوية ، قال : ولا هذا ، قالوا : فعبدُ الملك بن مروان ، قال : لا (١) ، قالوا : فمن ياأمير المؤمنين ؟ قال : عبدُ الرحمن بن معاوية الذى تخلَّص بكَيده عن سنن الأَسنّة وظُبات السُّيوف ، يَعبر القفر ، ويركب البحر ، حتى دخل بلدًا أَعجميًا ، فمصَّر الأَمصار ، وجنّد الأَجناد ، وأَقام مُلْكًا بعد انقطاعه ، بحُسن تدبيره ، وشدة عزمه (٢) ، إن معاوية نَهض بمَركب حَمله عليه عمر وعثمان ، وذلَّلا له صَعبه ، وعبد الملك ببَيْعة تقدَّمت له (٣) ، وأَميرَ المؤمنين بطلب عِتْرته (٤) ، واجتماع شيعته ، وعبدَ الرحمن منفردٌ بنفسه ، مؤيدٌ برأْيه ، مُسْتَصْحبا لعزمه .

وغَزا سَرَقُسطة ، وبها ابن الأَعرابى ، فخرج إليه يريد منعه من احتلال(٥) بابها ، فغلبه عبد الرحمن بعد حرب زَبون دارت بينهما ، وجَعل عبدُ الرحمن فى ذلك الموقف يطوف بعسكره ويُشرف على أَحوال رجاله فى مُعتركهم ، فنظر إلى رجل من الفرسان قد نزل عن فرسه وظهرت منه كفاية فى مُقامه ، وهو يتمثل بقول الشاعر :

لم يُطيقوا أَن ينزلوا ونَزلنا وأَخُو الحَرب من أَطاق النُّزولاَ

فقال لفتى له : انظر هذا الرجل ، فإن كان من أَشراف الناس فأَعطه أَلف دينار ، وإن كان من أَفناء الناس فأَعطه شَطْرها ، فلما ذهب

---

(١) العقد : « ولا هذا » .

(٢) العقد : « شكيمته » .

(٣) العقد : « تقدم له عقدها » .

(٤) العقد : « عشيرته » .

(٥) الأصل : « الاحتلال » .

إليه ، فإذا به رجل من العرب ، يقال له : القَعقاع بن زُنَيم ، من أهل رَيَّة ، فأَعطاه الأَلف الدّينار ، فلَحق بالشرف ، إلى أَن اسْتَقضاه الأَمير عبد الرحمن بن معاوية على جُنده بالأُردن ، وآلت الحال به إلى أَن خَرج عليه ، ثم ظفر الأَمير عبد الرحمن به فأَقاله واستقضاه ، رغبة فى ألاّ يُفْسِد يده عنده .

(ولاية هشام بن عبد الرحمن)

وكان الأَمير هشام بن عبد الرحمن خَيّرًا فاضلا جوادًا كريماً ، مع حُسن سيرته فى رعيَّته ، وتَحصينه لثُغوره .

أَوصى رجلٌ فى زَمان هشام بمالٍ فى فكّ سبيَّة من أَرض العدو ، فطُلبت فلم توجد ، احتراسًا منه بثغره (١) ، واستنقاذًا لمن سُبى (٢) وضَعْفًا من عدوّه عنه .

ولم يُقتل أَحدُ من جنده فى شئ من ثغوره أَو جيوشه إلا أَلحق ولده فى ديوان أَرزاقه .

ولما وُصفت سيرته لمالك بن أَنس ، ونُشرت فضائله عنده ، قال : وَدِدْتُ أَن الله زيَّن مَوْسمنا به .

حَكى ذلك الفقيه ابن أَبى هند ، وكان قد لقى مالكًا ، وأَخذ عنه .

وذُكر عنه أَن الهوّارى دخل عليه ، فقال : مات فلان عن ضَيعة تعود بكذا ، وفخَّم أَمرها ، وعليه دينُ ، تُباع ، وَحضَّه على شرائها ، فقال : أَنا أُريد أَمرًا إن بلغتُه استغنيت عنها ، وإن لم أَبلغها فما أَقلَّها ،

---

(١) العقد الفريد : (٤ : ٤٩٠) : « للثغر » .

(٢) العقد : « لأهل السبى » .

واصطناع رجل واحد أَحبّ إلىّ من ضيعة ، قال : فاصطنعنى بها ، فأَمر له بِثَمنها .

وكان هشام يُصِرّ الصُّرر بالأَموال ، ويَبعث بها فى ليالى المطر والظُّلمة إلى المساجد ، فتُعْطَى من وُجد فيها ، يُريد بذلك عمارة المساجد .

وذَكر عنه أنه كان من أشد الناس قمعًا للمسلّط من عُمّاله وخَدَمته ، تَعَّرض لموكبه رجلٌ متظلّمٌ من بعض عُماله ، فحال لَجَبُ المَوكب عن سماعه ، وكان فى الموكب بعضُ من يُشفق على العامل ، فبَدر إلى المشتكى وسَتره فى قُبّته وبَسط له الإنصاف ، ووعده إيَّاه ، ثم كتب إلى العامل بأَمره ، فذهب فى استلطافه واستمالته حتى رضى ، فذُكر لهشام تعرُّضُ المُشتكى وانصرافُه عنه دون بُلوغه إليه ، فأَعظم ذلك وأَكبره ، فقيل له : إنه قد أُنصف وفُعل به وفُعل ، فقال : إن النَّصَفة (١) للمظلوم لاتكون من الظالم دون تَسليط الحق عليه ، وبَعث فى المظلوم ، فقال : احلف على مارَكب منك إلا أَن يكون أصاب منك حدًّا فى الله ، فجعل لايَحلف على شئ ، إلا أَقاد منه ، فكانت تلك الزَّجرة لجميع عُمَّاله أَبلغ من السَّوْط والسيف .

ومن أَخباره قبل إفضاء الخلافة إليه : أَنَّه كان قاعدًا فى غُرفة له مُطِلَّة على النهر ، ينظر منها إلى الرُّبْض (٢) ، فوَقعت عينُه على رجُلٍ من كِنانة ، كان صنيعةً له ، مُقبل (٣) من كُورة جيَّان ، وكان من أَهلها ،

---

(١) النصفة ، محركة : الإنصاف .

(٢) الربض ، بالضم : جماعة الشجر الملتف ، والجمع : أرباض .

(٣) الأصل : « مقبلا » .

وكان أَبو أَيوب أَخوه واليًا بكورة جيّان ، فلما رآه قد أَوضع (١) فى السَّير ، وذلك فى الهاجرة ، دعا بعضَ فتِيانه ، فقال : أَرى الكِنانىَّ صَنيعتنا مقبلاً ، ولاأَحسبه أَقبل به فى ذا الوقت إلا أَمرٌ أَقلقه من أَبى أَيوب ، فقفْ بالباب ، فإِذا بلغك فأَوْصِله إلىّ على حالته ، فلما بلغ الكِنانىُّ إِليه أَوصله إلى هشام ، وكانت (٢) معه فى مجلسه جاريةٌ له ، فأَسدل السِّتْر عليها ، ثم قال : ماخبرُك ياكِنانىّ ، فلا أَحسبك إلّا قد هَمَّك أَمرٌ ، قال الكِنانىُّ : نعم ، قَتل رجلٌ من كنانة رجلاً خطأً ، فحُملت الدِّية على العاقلة(٣) ، فأُخذ بنوكنانة عامة ، وحِيف علىّ من بينهم خاصة ، وقَصدنى أَبوأَيوب ، إذ عَرف منك مكانى ، فعُذْتُ بك من ظُلامتى (٤) ، قال : ياكنانىّ ، يَسْكن رُوَعك ، قد تحمَّل عنك هشامٌ وعن قومك العَقْل (٥) ، ثم مَدّ يده من وراء السِّتر إلى لَبّة (٦)كانت على الجارية ، فأَخذها منها ، فإِذا بِعقد شراؤه عليه ثلاثة آلاف دينار ، فدَفعه إليه ، وقال له : أَدِّ به عن نفسك وعن قومك ، وتوسَّع فى الباقى ، فقال : إِنى لم آتِك مُستجديًا ولاضاق بى مالٌ عن أَداء ماحُمِّلْتُه ، ولكن لمَّا أُصبت بعُدوان وظُلْم أَحببت أَن يَظهر علىّ عِزُّ نُصرتك وأَثر عنايتك ، قال : فما الوجه الذى تتمنَّاه فى نُصرتك ؟ قال : أَن يَكتب الأَميرَ

---

(١) أوضع : أسرع .

(٢) الأصل : « وكان » .

(٣) العاقلة : القرابة من جهة الأب الذين يشتركون فى دفع الدية .

(٤) الظلامة : ما يطلبه المظلوم .

(٥) العقل : الدية . وفى الأصل : « العاقلة » وقد تقدم شرحها .

(٦) اللبة : القلادة .

أصلحه الله – إلى أَبى أَيوب فى الإِمساك عن أَخذى بما لم يَجب علىّ . وأَن يُحمِّلنى مَحمل عامَة أَهلى ، فقال : أَمسك العقد على حاله إلى أَن يُيَسِّر الله مارَغِبْتَ فيه .

ثم رَكب هشام فى وقته ذلك إلى الأَمير عبد الرحمن ، وهو بالرُّصافة ، فقيل له : هشام بالباب ، فقال : ماأَتى به فى وقته هذا إلا أَمْرٌ حَدث عليه ، فلما أَوصله وَمثل بين يديه قائمًا ، قال له : اجلس ، فقال : أَصلح الله الأَمير ، كيف جلوسى بهمٍّ أَقلقنى وحَزننى ، ثم قصّ عليه الخبر ، وسأَله إسعاف مَطلبه وقضاء حاجته ، فقال له : اقعد مُسْعَفًا فيما طلبته ، مُجابًا إلى ماسأَلته ، ماالذى تَذهب إليه فى أَمره ؟ قال : الكِتابَ له بالكَف عنه ، وأَلا يُؤخذ بغير مايلزمه ، قال الأَمير عبد الرحمن : أَو خيرٌ من ذلك ، إذ هو بهذه المنزلة من عنايتك : أَنتُؤَدَّى الدِّيَةُ من بيت مال المسلمين ، وتُحمل عن بنى كِنانة عامة ،حفاظًا لك فيهم ، وأَطلبًا (١) لك فى أَمرهم .

فأَعظم هشامٌ الشُكر فى ذلك .

ثم أَمر الأَميرُ عبد الرحمن بأَداء الدِّية من بيت مال المسلمين ، وبالكتاب إلى أَبى أَيوب فى ترك التعرض للكنانىّ وأَهله .

فلما حَضر خروجُ الكنانىّ ، ووصل إلى هشام لتوديعه ، قال : ياسيدى ، إنى قد جاوزتُ حدَّ الأُمنية ، وبلغتُ أَقصى غاية النُّصرة ، وقد أَغنى الله عن العِقد ، وها هو ذا فلا أَكون مُبارَكًا على بنى كنانة

---

(١) كذا .

فيما يُحْمَل عنهم ، مَشْئُومًا على الجارية (١) فيما انتُزع منها ، قال له هشام : ياكنانىّ ، لايَرجع إلىّ شئ خَرج على هذه السبيل عَنىِّ ، خُذه مبارَكًا لك فيه ، وسيُعوضه الله الجارية خيرًا منه .

(ولاية الحكم بن هشام)

وكان الأَمير الحكم بن هشام ، رحمه الله ، شجاعًا حازما مظفَرًا فى حُروبه ، أَطفأَ نيران الفتن بالأَندلس ، وكَسر فِرَق(٢) النِّفاق ، وأَذلّ أَهل الكفر فى كل أُفق ، وكان مع نجدته وعزَّة نفسه متواضعًا للحق ، منقادًا للإِنصاف من نفسه فضلا عن ولده وسائر خاصته . يتخير لأَحكامه أَورع مَن يقدر عليها (٣) وأَقضاهم للحق .

وكان له قاضٍ قد استكفاه (٤) أُمور رعيته ، لفضله (٥) وزُهده وورَعه ، وذُكر أَن الذى آثره به وعظَّمه عنده ، أَن رجلاً من أَهل كُورة جيَّان اغتصبه بعضُ عُمَّال الحَكم جاريةً له ، فلما عُزل العامل عَمِل فى تَصيير الجارية إلى الحَكم ، فلما صارت عنده ، واتصل بالرَّجُل المَغصوب حالُ القاضى فى أَحكامه ، واستخراج الحُقوق للرعية من يدى الحَكم وأَهل خاصته ، أَتاه وشَرح له خبره ، فدعاه إلى إقامة البيِّنة ، تَشهد(٦) له من قبل عِلْمه ، على المعرفة فيما قال به وتَظلَّم منه ، وعلى معرفة عين الجارية ، فأَوجبت البَيّنة (٧) أَن تُحْضَر الجارية ، فاستأذن القاضى للدخول على الحَكم ،

---

(١) مشئوما على الجارية : كان عليها شؤما .

(٢) الأصل : « فروق » .

(٣) الأصل : « عليه » . وانظر العقد الفريد (٤ : ٤٩٠ — ٤٩١) .

(٤) العقد : « كفاه » . (٥) العقد : « بفضله » .

(٦) الأصل : « فشهد » . ولا يستقيم بها الكلام .

(٧) الأصل : « السنة » . ويبدو أنها محرفة عما أثبتنا .

فلما صار عنده ، قال : إنه لا يتم عَدل فى العامة دون إفاضته فى الخاصة ، وحكى له أمْرَ الجارية ، وخيره فى إخراجها وإبرازها للبيِّنة(١) ، أوعَزله عن القضاء ، فقال : أوخيرٌ من ذلك : تُبتاع من صاحبها بأنفس ثمنها ، وأبلغ مايسأله فيها ، قال : إن الشُّهود قد شَخصوا من كورة جيان يطلبون الحق فى مظانه ، فلما صاروا بفنائك تَصْرفهم دون إنفاذ الحق لأهله ، فلعل قائلاً أن يقول : باع مايَملك (٢) بَيْع مُقْتَسر على نفسه ، ولابد من إبراز الجارية ، أو تُصَيِّر أمْرَك إلى من أحببت ، فلما رأى عزمه أمر بإخراجها من قَصره ، وقد كانت وقعت من نفسه مَوْقعًا ، فشهد (الشُّهود) (٣) على عينها ، وقُضى بها لصاحبها ، ثم قال له : إياك وبيعها إلا فى بلدك لِتَقْوَى بذلك الرعيَّة على طَلبَاتهم ، وبَيعتهم (٤) على اسْتخراج حُقوقهم .

فلما تُوفى ذلك القاضى اكتأب الحَكَم لمُصابه ، وجَزِع على وفاته فحُكِي عن عَجَب ، جاريته ، قالت : إنى لفى الليلة التى أُعلم فيها بوفاة القاضى عنده بائتة ، فلمَّا كان فى جَوف الليل فقدتُه عن مضجعه ، فخرجت أطلُبه ، فإذا هو قائم يصلِّى فى دُكان (٥) الدار ، فقعدت فيما يَليه أنتظره ، فسَجد سجدةً أطالها حتى غَلبتْنى عيناى ، ثم انتبهتُ فإذا هو ساجد على مثل حالته ، ثم غلبتنى عَيناى ، فما راعنى إلا وهو يُحرِّكنى لانْصداع الفجر ، فأقبلتُ عليه أسأله : ماالذى أقلقه عن

---

(١) الأصل : « للسنة » ، ويبدو أنها محرفة عما أثبتنا .

(٢) الأصل : « ما لم يملك » . وما أثبتنا من العقد .

(٣) التكملة من العقد. (٤) كذا .

(٥) الدكان : المصطبة .

فراشه ؟ قال : خَطْبٌ عظيم ، ومُصاب جَليل ، كنتُ قد تَفرَّجْتُ من من أُمور الرعية بالقاضى الذى كان الله قد كَفانى به ماكفانى ، فخشيتُ أَلا أُصيب منه خَلفًا ، فدعوت الله ، عزّ وجلّ ، أَن يُوفق لى قاضيًا مثلَه أَجعله بينى وبين الناس ، فلما أَصبح دعا بوزرائه ، ثم قال لهم : تخيروا للرعيَّة من يتولى الحُكم فيهم ، وأَستعين به على ماقلدتُه من أُمورهم ، فدلَّه (١) مالكُ بنُ عبد الله القُرشى على مُحمد بن بَشير (٢) ، وكان كاتبًا له بِبَاجَة ، لِمَا فَهِم من فضله ، واخْتَبره من ورعه ، فوقع بنَفس الأَمير الحَكَم ، ووُفِّق لولايته .

فلمَّا أَن ولاه فَضل جميعَ من تقدمه عدلاً وَوَرَعًا وزُهدًا ، ولم يَدع التَّمادى على ماكان عليه من هَيئته ونظافة ملبسه ، كان يَخرج إلى المسجد ويَقعد للحُكْم فى إِزار مُورد ، ولِمَّة مُفَرَّقة ، فإِذا طُلب ماعنده وُجد أَفضل الناس وأَورعهم وأَزهدهم .

وأَتى رجلٌ من بعض الأَطراف إلى المسجد الجامع يسأَل عنه ، وكان فى زيه الذى ذكرنا ، قاعدًا ، فمال إلى حَلْقة يسأَلهم عنه ، فدُلّ على الحلقة التى كان فيها ، فلما أَتاه ووقف عليه رَجع إلى القوم فقال لهم : إنى — رحمكم الله — توسَّمت الخير فيكم ، وقصدتُكم فصِرْتم تهزأون بى ، دَللتمونى على عَزَّاف(٣) ، غَرَرْتُمونى ، قالوا : لا والله ، ماغَرَرْناك ، وإنه للقاضى ، تقدَّم إليه فستجد عنده أَفضل مايَسُرك .

---

(١) الأصل : « فدل ».

(٢) الذى فى العقد أن القاضى السابق كان اسمه : سعيد بن بشير ، وفيه أنه كان الموصوف بهذا الذى ذكره المؤلف هنا .

(٣) كذا ، والعزاف : من حرفته العزف .

فلما وقف به أَدناه من نفسه . ثم باحثه عن مطالبه . فوجد منه ماأَنس إِليه وتَفرَّج به . فَرجع عنه إلى القوم ، فقال : جُزِيتم خيرًا ، فوالله لقد صادفتُ أَكثر مما أَمّلتُ .

وكان عبّاسُ بنُ عبد الله بن مروان القُرشيّ من الخاصة بالأَمير الحَكم ، والمَنزلة عنده ، بحيث لم يُدانِه أَحدٌ فى زمانه ، فأَقام (١) عليه رجلٌ فى ضَيعة كانت له تَحت يده ، فأَثبتها عند ابن بَشير القاضى ، فلما علم القُرشى بأَن القاضى (عزم) (٢) على أَن يوجِّه الحُكم عليه عاذ بالأَمير الحَكم ، واشتكى إِليه مانال من القاضى ، وسأَله صَرْفه عنه إلى غيره ، وجعل يَتوّبغه (٣) ويقع فيه . فقال له الحكم : إنْ كان حقًّا ماتقول فامْضِ بنفسك إِليه ، وهو غير قاعدٍ للحكم ، فإن أَخْلاك نَفْسه وأَدخلك عليه ، فقد صدَّقناك وعزلناه ، فقال : أَفعل .

فَوَكل به الأَميرُ الحَكَمُ بعضَ فتيانه ليمتحن مايكون من القاضى ، فخرج القُرشى ، والأَزِقّةُ تَغصّ بموكبه ، حتى أَتى باب القاضى ، فَقرع الباب ، فخرجت إِليه عجوز له ، فأَعلمها بنفسه ، وأَمرها أَن تستأذن له عليه ، فلما علِم به نَهر العَجوز ، وقال لها : قُولى له : إن كانت لك حاجة فَتكُن فى المسجد مع طُلاب الحوائج حتى أَخرج إِليك ، فليس إلى إدخالك من سبيل ، فتردَّد عليه وأَلحف ، فلم يأذن له ، فَرجع الفتى إلى الحَكَم فأَعلمه بما كان من القاضى ، فطار به سُرورًا .

---

(١) الأصل : فقام . ويبدو أنها محرفة عما أثبتنا .

(٢) بمثل هذه التكملة يستقيم الكلام .

(٣) يتوبغه : يعيبه ويطعن عليه ، والمسموع : وبغه يبغه وبغا .

وَوَفد على الحَكَم ، رحمه الله ، رجلٌ من بعض أطراف ثغوره من ناحية لَبْدانية (١) ، فسأله عن الثغر وحاله ، فذكر خَرْجةً كانت للعدو عليهم ، وأنه سمع امرأةً تَصيح بأعلى صوتها : واغوْثاه بك ياحكم ، فلقد غَفَلْتَ عنا حتى تركتنا نَهْبًا للعدو ، فأحفظه ذلك ، فتجهز فى وقته ، وخَرج بنفسه حتى أتى ذلك الثَّغر ، فأمكنه الله من العدو فى ناحيته وأظفره (٢) عليهم ، فافتتح المعاقل ، وأصاب الأَسرى ، ثم خَرج قافلاً وقال للوافد عليه : دُلَّنا (٣) إلى مَوضع المرأة التى سمعتَها صارخةً ، فقصد به نحوها ، فلما خَرجت إليه دفع إليها عدَّة من الأَسرى تُفادى بهم من أُسر من أَهلها ، وضَرب أَعناق الباقين فى حَضرتها ، ثم قال لها : أَغاثَكِ الحَكَمُ أَم غُفَل عنك؟ قالت : لا، بل أغاث ونصر ، فنَصره الله وأغاثه (٤) .

وأتاه الخبرُ أن جابر بن لَبيد (٥) يُحاصَر بجيَّان (٦) ، وهو فى الحائر (٧) مع فُرسان من خواصه يلاعبونه على خَيلهم .

وكان له (٨) أَلفا (٩) فرس مُرتبطة على شاطئ النهر (بإزاء) (١٠)

---

(١) الأصل : « لجدانية » ، وانظر الحاشية (رقم : ٣ ، ص: ٥٨) .

(٢) الأصل : « وأظفر » . (٣) الأصل : « دل بنا »

(٤) وانظر البيان المغرب (٢ : ٧٥) فثمة خلاف .

(٥) وانظر نفح الطيب للمقرى (٤ : ١٦٧) .

(٦) العقد الفريد (٤ : ٤٨) : « يحاصر جيان » .

(٧) كذا . ولعله يريد بستانا كان للحكم . والذى فى العقد : « وهو يلعب بالصولجان فى الجسر » .

(٨) له ، أى للحكم . (٩) العقد : « ألف » .

(١٠) بمثل هذه التكملة يستقيم الكلام .

القصر ، تجمعها داران ، على كل دار عشرة عُرفاء ، تحت يد كل عريف مائة فرس ، فالعُرفاء يُشرفون عليها وتُعلف بين أَيديهم ، ويَنظرون فى تَعويض ماتَعذر منه (١) لتكون معدَّة قائمة لما عَسى أن يُفجأ من أَمر يُفزع إليه بها ، فإذا كانت حركة كانوا كَنَفْس واحدة .

فدعا بأَحد أُولئك العُرفاء ، فلما مثل بين يديه أَسرَّ إليه بالخروج إلى جيَّان إلى ابن لَبِيد من وقته فى عِرَافته ، وأَمره أَلا يُعرِّف أَحدًا وَجه طريقه ، ثم عاد إلى لهوه ، فلما مضت ساعة دعا بثانٍ من عُرفائه ، فأَسرّ إليه بمثل ذلك ، ودعا عشرة ، فخرجوا متتابعين ، لايعلم أَحدٌ منهم بقَصد صاحبه ، حتى تساقطوا على ابن لَبِيد فى اليوم الثانى من لَدن أَصبح إلى الليل ، فلما رأَى ذلك عدوُّه سُقط فى أَيديهم ،وظَنوا أَنه قد أُحيط بهم ، وأَن أَقطار البلاد منسوبة إليهم (٢) ، فولوا منهزمين من وقتهم ، فاستباحتهم الخيلُ وأَصاب عسكرهم ، فأَتت الرُّؤوس إلى الثالث(٣) ، والحكم مع مواليه فى الحائر ، لايعلم أَحدٌ منهم بمعنى الخَبر حتى أَنبأَهم به .

وحُكى عن (٤) الحكم أَنَّه لما قام عليه أَهل الرَّبض ، وراموُا خَلعه ، وكانوا شَوْكة عسكره، وعُظماءَ أَهل بلدته، إلتزم الصَّبر فى مُكافحتهم ، وثَبت على مناجزتهم ، فلما اشتدَّت الحرب ، واستحر (٥) القِتال والقتل

---

(١) كذا . ولعله يريد : ما تعذر من العلف .
(٢) العقد : « قد حشرت لديهم » .
(٣) أى الثالث من الأيام .
(٤) الأصل : « من » .
(٥) الأصل : « واستحرت » .

دعا بغالية تَغلَّل (١) بها ، وبمِسْك فذرَّه على مَفارق رأسه ، فقال له يَزنت، فتاه : أَهذا يوم طيب ياسيِّدى ؟ فانتهره وقال : هذا يومٌ وَطَّنت نفسى فيه على الموت أَو الظَّفر بعدوى ، فأَردتُ أَن يُعرف رأْس الحكم من بين رُؤوس من يُقتل معه .

وكَتب إليه عاملُه على ماردة يُعلمه عن خارج من أَهل بَربرها على الرعية ، ويستأذنه فى حَربه .

فحكى بعضُ عرفاء الحكم ، قال : دَعانى ، ولاأَعرف بما كتب إليه به العاملُ ، وقد كنتُ عارفًا باسم الرجل ، فدخلت عليه وهو قاعد على سكون ودَعة (٢) فى بعض الصُّحون ، فقال لى : أَمجتمعون أَصحابُك ؟ قلت : نعم أَكرم الله الأَمير ، قال : أَتعرف فلانًا ؟ قلت : نعم ، قال : فأْتنى برأْسه وإلا والله فرأْسك مكانه ، وخُذ من الحَرب فى أَجدِّ ماأُخذ قط ، فلما ولَّيتُ نادانى ، فانصرفت (إليه) (٣) ، فقال : إنِّى غير بارحٍ من مَقعدى هذا منتظر لك ، فتعجَّبت من تأكيده علىَّ وتحذيره لى ، وخرجتُ من فَوْرى ذلك حتى قَدِمْتُ عليه ، فوجدته متحرِّزًا ، صَعْبَ المرام ، فما أَعلم أَنى لقيتُ من شدَّة الحرب فى أَحد مالقيتُ فيه ، ولقد كدْتُ(٤) أَهمُّ بالانحلال منه ، فإذا ذكرت قوله : وإلاّ فرأْسك والله مكانه ،

---

(١) الغالية : أخلاط من الطيب . وتغلل بها : تطيب . .

(٢) جاءت هذه العبارة « على سكون ودعة » فى الأصل متقدمة ، وبعد قوله : « الرجل » .

(٣) بمثل هذه الكلمة يستقيم الكلام .

(٤) الأصل : « كنت » .

لم أَجدُ بدًّا مـــن مُناجزته ، حتى أظفرنى الله به ، فقدمتُ إليه برأسه فى اليوم الرابع ، فوجدته قاعدًا فى المكان الذى فارقته فيه .

فأَخبرنى (١) الفتْيان أنه لم يَقُم عنه بعد مُفارقتى إياه إلا لوضوء أَو صلاة .

ومن شعره الذى قاله بعد وقعة الرَّبض :

رأَبْتُ صُدوعَ الأَرضِ بالسَّيفِ راقعًا ... وقِدْمًا لأَمْتُ (٢) الشّعْبَ مذ كنتُ يافعَا

فسائِل ثُغورى هل بها اليوم ثُغرةٌ ... أُبادرها مُسْتَنْضِىّ السَّيف دارِعَا

وشافِه على (٣) الأَرض الفَضاء جَماجمًا ... كأَقْحاف شَرْيان الهَبِيد لوامعَا (٤)

تُنَبِّئْك أَنى لم أَكن فى قِراعهم (٥) ... بِوَانٍ وقِدْمًا (٦) كنتُ بالسَّيف قارعَا

وأَنى إذا حادُوا جَزوعًا (٧) من الرَّدَى ... فلم أَكَ ذا حَيْدٍ من المَوت جازعَا

حَمَيْتُ ذِمارى فانتهبْتُ ذِمَارَهم ... ومن لا يُحامِى ظَلَّ خَزْيَانَ ضارِعَا

ولمَّا تَساقَيْنَا سِجَالَ حُروبنا ... سَقَيْتُهُمُ (٨) سُمًّا مِن الموت ناقعَا

وهل زِدْتُ أَن وَفَّيْتُهم صاعَ قَرْضِهم ... فوافَوْا مَنايَا قُدِّرَتْ ومَصارِعَا

فهاكَ بِلادِى إننى قد تَركتُها ... مِهادًا ولم أَتْرُك عليها مُنازِعَا

(١) الأصل : « فأخبرتنى » .

(٢) العقد (٤ : ٤٩٢) والنفح (١ : ٢ : ٣) : « رأيت » .

(٣) الأصل : « مع » . وما أثبتنا من العقد، والبيان المغرب (٢ : ٧٣) والحلة السيراء (١ : ٤٧) والمغرب (١ : ٤٤) .

(٤) شريان الهبيد ، أى شجر الحنظل .

(٥) العقد ، والبيان : « عن قراعهم » .

(٦) العقد ، والبيان : « وأنى »

(٧) الأصل : « جزاعا » ، وهو غير مسموع .

(٨) الأصل : « سقيتم » ، وما أثبتنا من العقد ، والبيان .

كان عُثمان بن المُثنّى المؤدِّب يقول : قَدِم علينا عباسُ بن ناصح قُرطبة ، أيَّام الأَمير عبد الرحمن ، فاستنشدنى شِعْرَ الحَكم فى الهَيْج (١) ، فلما انتهيتُ به إلى آخر الأَبيات ، حيث يقول :

وهَلْ زِدْتُ أَن وَفَّيْتُهم صاعَ قَرْضِهِمْ فوافَوْا مَنايَا قُدِّرت ومَصارِعَا

قال : لو وَضع الحَكَمُ الخُصومةَ فى أَهل الربض (٢) لقام بعُذره هذا البيت .

ومن شِعره فى الغزل ، وكان له خمسٌ من جواريه قد غَلبن عليه ، وحُلن بينه وبين سائر نسائه ، فأَراد يومًا أَن يُدخل عليهم غيرهن ، فتأَبيَّن عليه وقُمن مُتغاضبات ، فلما ولَّيْن عنه صَرَفهن وعمل فى استرضائهن ، وأَنشأَ يقول :

قُضْبٌ من البان ماسَتْ فوق كُثْبَانِ ولَّيْن (٣) عنِّى وقد أَزْمَعْنَ هِجْرانِى

ناشدتهُنّ بحَقِّى فاعْتزَمْن على الْـ عِصْيان لمَّا خَلَا (٤) منهن عِصْيانى

مَلَكْنَنى مَلِكًا ذلَّت عَزائِمُه للحُب ذُلَّ أَسِير مُوثَقٍ عانى

مَنْ لى بمُغْتصِبات الرُّوح مِنْ بَدَنى يَغْصِبْننى فى الهَوَى عِزِّى وسُلطانى

وله فيهن :

ظَلَّ مِنْ فَرْطِ حُبِّه مَمْلُوكَا ولقد كان قَبل ذاك مَلِيكَا

إنْ بَكَى أَو شَكَا الهَوى زِيدَ ظُلْمًا ببعَادٍ (٥) أَدْنَى حِمامًا وَشِيكَا

---

(١) الهيج : الحرب .

(٢) العقد : « لوجوّنى الحكم فى حكومة لأهل الربض » .

(٣) وكذا فى الحلة السيرة (١ : ٥٠) والنفح (١ : ٣٤) . وفى البيان المغرب (٢ : ٧٩) : « أعرضن عنى » .

(٤) الأصل : « خلا » بالخاء المعجمة ، تصحيف .

(٥) الأصل : « بعادا » .

تركتْه جآذرُ القَصْر صَبًّا مُسْتَهامًا على الصَّعيد تَريكَا
يَجعل الخَدَّ واضعًا فوق تُرْبٍ لِلَّذى يَجعل الحَرِيرَ أَرِيكَا
هَكذا يَحْسُن التَّذلُّل للحُـ ـرِّ إذا كان فى الهوى مَمْلُوكا

(ولاية عبد الرحمن بن الحكم)

وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، رحمه الله ، حليمًا جوادا ، وكان له حظ من أَدب وفِقه ، وحفظ للقرآن ، ورواية للحديث .

حُكى عنه أنه تمادى مع بعض جلسائه فى حديث من بعض المشاهد، فلما تلاحيا فيه ، قال : اسْمَعْ كتب المَشاهد حفظًا ، فقرأها ظاهرًا .

وحَكى بعضُ نَقَلة الأَخبار أنه لم يَصِل أَحدٌ إلى روايته (١) ومُشافهته فَلَمَّا سأَله (٢) (سائل) (٣) شيئًا مما عزَّ أَو هان ، فانصرف دونه .

وأَلْفى المُلْك قد مُهِّد ووُطِّد، فَخَلا بلذَّاته ، وانفرد بشهواته ، فكان كداخل الجنة التى جُمع فيها ماتَشتهيه الأَنفس وتَلَذُّ الأَعين .

أُدخلت إليه يومًا أَموالٌ ورَدت عايه ، فعُبِّيت الخرائط بين يديه ، وبَثَّ فِتيانه بالرَّسائل إلى خدمته ، فخلا مجلسُه منهم حاشى فتى كان قائمًا بين يديه ، فتغشَّت عبدَ الرحمن سِنةٌ ، ظَنّ بها الفتى أَن النوم قد أَثقله ، فبسط يده على خريطة من المال ، أَرْسل عليها كُمَّه وولَّى ، وعبدُ الرحمن يلاحظه ، فلما توافى فِتيانُه أَمرهم، برفع المال وعدّ الخرائط، فإذا خريطة ناقصة ، فتدافعوا فيها ، كلٌّ يَتهم بها صاحبه ، فقال لهم

---

(١) الأصل : « رويته » . (٢) الأصل : « فسأله » .
(٣) تكملة يقتضيها السياق .

عبدُ الرحمن: أَمسكوا عن هذا، فقد أَخذها مَنْ أَخذها، وعايَنه من لايقولها، وأَمر بضم المال، ورأَى أَن كَشْف آخذها لَوْم، حياءً وكرمًا.

وتغضَّبت جاريةٌ من جواريه عليه، وأَرسل إليها، فامتنعت منه وغلَّقت بابها دونه، فأَمر بِبُنيان الخرائط على بابها حتى سدّ الباب، فلما فتحته تساقطت الخرائط عليها، فإذا بنحو عشرين أَلفَ دينار.

وأَمر لجارية من جواريه بعِقْدٍ شراؤه عليه عشرة آلاف دينار، فجعل بعضُ مَن حضر من وزرائه يُعظِم ذلك عليه، فقال له: ويحك! إنَّ لابسَه أَنفسُ منه خَطَرًا (١) وأَرفع قَدْرا، وأَكرم جوهرًا، ولئن رَاق من هذه الحَصباء منظرُها، ولُطُف فى الأَعين جوهرها، لقد بَرأَ اللهُ مِنْ خلقه جوهرًا يَروق ويَسبى الأَلباب، وهل على الأَرض فى زينتها، وشريف جوهرها، وملاذ(٢) نعيمها ورَفاهيتها، أَقرّ للعين، وأَجمع لمحاسن الزَّين، من وجهٍ أَكمل اللهُ حُسْنَه، وأَلقى عليه الجمالُ بَهْجته، ثم قال لابن الشَّمْر، وكان حاضرًا: هل يحضُرك فى ذلك شىءٌ؟ فقال:

أَتَقْرنُ حَصْبَاءَ اليواقيت والشَّذَرْ ... إلى مَن تعالَى عن سَنَا الشَّمْس والبَدْرِ
إلى مَنْ بَرَتْ قِدْمًا يدُ اللهِ خَلْقَه ... ولم يَكُ شئٌ غيرُه أَبدًا يَـبْرِى
فأَكْرِمْ به من صَنعة اللهِ جوهرًا ... تَضاءَل عنه جَوهرُ البرِّ والبَحْـرِ
له خَلَق الرحمنُ مافى سَمائه ... ومافَوْق أَرْضيه ومَكَّن فى الأَمْـرِ

فقال الأَمير عبدُ الرحمن بن الحكم:

قَريضك يابن الشَّمْر عفَّى على الشِّعْر ... وجَلّ عن الأَوهام والفَهْم والفكْرِ

---

(١) الأصل: «حظرا»، تصحيف. (٢) كذا.

(٣) الشذر: قطع الذهب تلتقط من معدنه واللؤلؤ الصغار.

إذا شافَهَتهُ الأُذْنُ أَدَّى بسحره ... إلى القَلب إبداعًا فجَلَّ عن السِّحْرِ
وهَل بَرأَ الرَّحمنُ من كُل مابَـرَا ... أَقرَّ لعَيْنٍ من مُنَعَّمة بكْر
تَرى الوَرْدَ فَوْقَ الياسمين بخَدِّها ... كما فُوِّق الرَّوْضُ المُنَوِّر بالزَّهر(١)
فلو أَنَّنى مُلِّكْتُ قَلبى وناظـرى ... نَظمتُهما منها على الجيد والنَّحْر

ثم أَمر له بخَريطة فيها خمسمائةُ دينار ، فخرج والوصيفُ يحملها له ، فلما توارى عن الأَمير قال له : يا بن الشَّمر : أَين بات القمرُ الليلة ؟ قال : تحت كُمَّك ياسيدى .

وغزا ماردةَ سبعة أَعوام وِلاءً ، فلمَّا كان العام السابع ، وأَشْفى بهم على العطب ، نظر إلى جُنده قد تعلَّقوا بشُرَّافات السُّور وتغلَّبوا عليه . وضَعُف أَهل ماردة عن دفاعهم ، فسَمع صُرَاخَ النِّساء وعَويل الصِّبيان ، وعَجيج البُكاءِ ، فأَمر بالإمساك عنهم ، وقَبْض أَهل العَسكر عن قتالهم ، ثم دعا بوُزرائه وقُواده ، وقال لهم : قد علمتم ماكان من تغلُّب حَشَمنا ورجالنا على هؤلاءِ الظَّلمة لأَنفسهم ، ولم يكن رَفْعُنا مارفعناه عنهم إلا رِقْبَة لله ، عز وجل ، فيهم ، وتخوفًا مِن قتل وِلدانهم وأَطفالهم ، ومن لاذنب لهم ممن استُكْرِه على نفسه منهم ، ونحن نرى استجلاب النصر من حيث عَودنا الله وعَرفنا من العَفو والصَّفح ، وقد عَزمتُ على الانتقال عنهم ، فإن أَبصروا قَدْرَ يَدِنا فى الإبقاء عليهم ، ومراقبة الله فيهم ، وإلا كان الله من ورائهم مُحيطًا ، وعلى الانتقام منهم قديرًا ، فهو الذى أَيّدنا وقهرهم ، ونصرنا وكَبَتهم .

---

(١) فوق ، أى جعل الزهر من الروض ، كالفوق من السهم ، وهو حيث يثبت الوتر ، وهما فوقان .

فلم يَنْتَقل إلا محلَّة حتى أَتته رسلُهم بطاعتهم ، والإلقاء إليه بأَيديهم .

وكتب إليه بعضُ مواليه يسأَله عملا رفيعًا لم يُشاكله (١) ، فوقَّع فى أَسفل كتابه : من لم يُصب وجه مَطلبه كان الحرْمانُ أَولى به .

وكان عُبيد الله بن قرلمان (٢) بن بدرا، مولاه ، من بعض نُدمائه ، قد خرج مُطَّلِعًا لضيعته ، فحضرت الأَمير أَريحية صار بها إلى مجالسة أَصحابه ، وقد افْتصد ذلك اليوم ، فكانوا عنده فى أَحسن مجلس ، ثم انقلبوا ، وقد وصل كُلَّ رجل من الخمسمائة إلى المائتين ، على قَدْر مَعروف كل رجل منهم ، فوقع الخبرُ على عُبيد الله بن قرلمان ، فابتدر رجاءَ أَن يُدرك الصلة التى نالت أَصحابه ، فكتب إليه :

يامَلِكًا حَلَّ ذُرَى المَجْدِ ... وعَمَّ بالإنْعـام والرِّفْـدِ
طَوَبى لمن أَسمعتَه دعوةً ... فى يَوم إجماعك للفَصْدِ
فظلّ ذاك اليوم من قَصْفه ... مُستوطنًا فى جَنة الخُلْدِ
وقد عَدانى أَن أُرَى حاضِرًا ... جَدًّا(٣)متى تُحْظِ الوَرى يُكْدِى
فانْتَعِشْ العَثْرَةَ من عاثِـرٍ ... عَدَتْ عليه أَنْحُسُ القِـرْد
وامنُنْ بإصْفادِى عطًا لم يَزَلْ ... يَشْمل أَهلَ القُرْب والبُعد (٤)

فوقع فى أَسفل أَبياته : من آثر التضجع فَلْيرض بحظه من النَّوم .

---

(١) العقد الفريد (٤ : ٤٩٣) : « لم يكن من شاكلته » .
(٢) فى الأصل : « قرطان » . وما أثبتنا من التكملة لابن الأبار (انظر الفهرست) .
(٣) الأصل : « جد » . والجد بالفتح : الحظ .
(٤) أصفده : أعطاه حتى قيده بالإعطاء .

ثم عاود فقال :

لانِمْتُ إن كنتُ يامولاىَ مَحْرُوما ... ولاطَعِمْتُ على ما نالنى نَوْمَا
أَشْقَى لِحِرْمان يومٍ لاعتياضَ به ... لو أنَّ مِن جَنَّة الفردوس لى يَوْمَا
ورُؤيتى منك وجهًا مااكتحلتُ به ... إلا تعرَّفت صُنْعًا منه محتومًا(١)
فكيف أُمنع وِرْدًا منك آملُه ... صَدْيان حامَ رجائى فَوقه حَوْمَا

فأمر له بالصِّلة ، وكتب فى أسفل كتابه :

لاغَرْوَ أنْ كُنت مَمْنُوعًا ومَحْرومًا ... إذكنت آثرتَ هَوْبًا يُورثُ النَّوْمَا(٢)
ولم ينل إمْرؤٌ من عَفْوه أمَلاً ... حتى يَشُد على الإجهاد حَيْزُوما (٣)
فهك من سَيْبنا ماكنتَ تَأمله ... إذ حُمْتَ فوق رجاء الوِرْد تَحْوِيمَا

(ولاية محمد بن عبد الرحمن)

وكان الأمير محمدُ بن عبد الرحمن حليمًا عفيفًا ، كاظمًا لغيظه ، مجتملاً (٤) حسَن الأدب ، بصيرًا بالحساب ، .

ذُكر عنه أنه كان يتولَّى محاسبة أهل خِدمته ، ويتعقب أُمورهم بنفسه ، لِنُفوذه فى الحساب ، وصحّة قريحته ، وتمكنه فى فُنون العلم والآداب ، ثم يُوقفهم على موضع الخَلل والخطأ فى أعمالهم .

ومما يُؤثر من أَناته وتثبُّته أن هاشم بن عبد العزيز دَسَّ على رجل من خَدَمة الأَمير من بَغاه عنده ، وحَشد من كل جانب عليه ، وأَبقى

(١) كذا . وفى البيت عيب من عيوب القافية ، وهو سناد الحذو ، وهو اختلاف حركة ما قبل الردف .

(٢) الهوب : البعد . (٣) انظر الحاشية الأولى .

(٤) الأصل : « محتملا » بحاء مهملة ، تصحيف .

نفسه للمشورة فى أمره ، فلما دَخل فى بعض الأَيام هاشم أَخطر ذكرَه ايعلم ماوَقر له فى قلبه ، فلم يستنكر من حالته شيئًا ، ثم أَعاد الناس إلى الطلب والوقوع فيه ، فتباطأَ عليه ماأَمّل من عزله ، إلى أَن كشف وجهه فيه ، وذُكر عنه أَكثر مما كان يطعن به عليه ، حتى أَشاط دمه ، فأَدخله الأَمير محمد – عفا الله عنه – فقال : ياهاشم ، هذا كتابك ؟ قال : نعم ، قال : فماترى فى أَمره ، فقد كَثُر علينا فى جانبه ؟ قال : التنكيلُ له والتشريد به ، قال : ياهاشم ، على رِسْلك ، قُم إلى الكُوة التى فى المجلس ، فخُذ ضُبارة الكتب التى فيها ، فإذا بها تشتمل على نحو من مائة كتاب ، فقال له : اقرأْ ، فإذا كُلٌّ كتاب مُوجب لقتله ، مُشيطٌ دَمه ، فجعل يقرأ ، ويده تُرْعَد ، وجَبينه يرشح ، ووجهه يُزْبد ، فإذا فرغ من كتاب أَمره بأَخذ غيره ، حتى أَتى عليها . قال : ياهاشم ، مامَعذرتك فى هذا ؟ فجعل يتنصّل ويحلف ويقول : حُسّادى ، وأَهل الطعن علىّ ، والتنافس بنعمة الأَمير ، أَبقاه الله عندى ، وحُسن رأْيه فى كَثِير ، والأَمير سيِّدى ، أَعزهالله ، أَولى بالتثبت فى أَمرى ، والإبقاء علىّ ، حتى تنكشف بَراءَتى ، ويتَّضح له وجهُ عذرى ، وهو على فعل مالم يَفعل أَقدر منه على رد ماقد فعل ، قال : ياهاشم ، رُبَّ عجلةٍ أَعقبت نَدَمًا ، وليس من شيمتى ٱلإسراع ، ولو كانت تِلك لكنتَ أَول هالك ، وقد خبرنا هذه المُطالبات فرأَينا أَكثرها إفْكًا وزُورا ، ومع هذا فلو رَدَدْنا إفك الآفك منهم ، وأَظهرنا له الإعراض عن تَقَبُّل منهم ، انكسروا عن مُناصحتنا ، ونكَلوا عن مكاتبتنا ، ولكنَّا نَعِى ذلك فهمًا ، ونحيط به علِمًا ، حتى نـأتى عليه بعين جليَّة ، وصِدْق رويَّة ، فإياك أَن يَعرف أَحدٌ من أَصحاب هذه البَطائق التى أَطلعناك عليها أَنك فهمتَ

شيئًا منها ، فإنه إنْ عَلِم أَحدٌ منهم أَنه ذاعت (١) من كتابه لَفظةٌ عاقبتك بها أَشدَّ العُقوبة ، ولم تَقُم عندى لك بعد ذلك قائمة ، فانظر لنفسك أَو دَع .

ولمَّا أُصيب هاشم بكَرْكَر ، وصار إلى الأَمير خبرُه ، وقف (٢) الأَمير محمد فى جانبه ، فذُكر أَن ذلك إنما كان لطَيْشه وعجلته ، وقلَّة إحكامه لنظره ، وأَنه لم يزل محدودًا فى أَمره ، والوليدُ بنُ عبد الرحمن بن غانم حاضر مع الوزراء ، فلم يكن منهم أَحدٌ يتكلم غيره(٣) ، على مُباعدة كانت بينهما ، فقال : أَصلح الله الأَمير ، لم يَكن على هاشم التخيرُ فى الأَمر ، ولاالخروج عن القدر ، بل استفرغ نُصحه ، وأَعمل جهده ، وحامَى استطاعته(٤) ، فأَسلمه الله بخذلان مَن كان معه ، ونكول من أَطاف به ، فجُوزى عن نفسه وسُلطانه خيرًا .

فأُعجب بذلك من مقالته ، وسُرِّى عنه فيه .

ثم رأَى الأَميرُ محمدٌ صَرْفَ ماكان بيد هاشم من دار الخيل والقيادة إلى الوليد بن عبد الرحمن بن غانم ، فقال : أَصلح الله الأَمير ، إنما كان هاشم عبدَك ، وسهمًا من مراميك ، وسيفًا من سيوفك نَفذ لأَمرك ، وتقدم فى المحاماة عن سلطانك ، حتى تقطَّع فى مرضاتك ، فَلْيُحسن الأَميرُ ، أَبقاه الله ، خِلافته فى أَولاده ، وليحقّق مِن بَعض بلائه بإمضاء

---

(١) الأصل : « استذاع » .
(٢) الأصل : « وقع » .
(٣) الأصل : « غير » .
(٤) الأصل : « استطاعتك » .

ولده على خِدمته ، فقال : ياولِيد ، مثلك ذكَّر بشريف المَنقبة ، وحَضَّ على سَنى المَكْرُمة ، وقديماً ماوُفِّقت فوَفَّقْت ، وسُدِّدت فسَدَّدت ، وأَفضل الأَصحاب عندنا الناصحُ فى المشورة ، المذَكِّر عند الغفلة ، الباعث على المصلحة ، وقد استحسنَّا مارأَيت فمُرْ ولده بالتَّمادِى على خدمته ، ولاتُخْلِهم من تفقدك ، والإشراف عليهم ، بحُسن نظرك .

وكان الأَميرُ محمد مشغوفًا بالبَيان ، مُؤْثِرًا لأَهل الآداب ، تردد عليه بعضُ مواليه يسأَل استخدامه ، بلطائف فى الرَّغبة ، وترفُّق فى المسأَلة ، فأَوصى إليه : لم يتقدم لك عندنا خِبْرةٌ نُقدِّمك بها غير مارأَيناه من حُسن مخاطبتك فيما تَرِد علينا من كُتبك ، فإن كنت كاتبَها فقد أَحسنت ، وإن كنت اخترت بفَضل همتك ، وجَودة اختيارك ، مَن يُحسن ذلك عنك ، فقد أَبلغت فى العناية ، وفَضُلْت فى الهمة ، وأَنت بكلتا الحالتين عندنا متقدِّم ، وقد رجونا بنَفاذك فى تهذيب كتبك تَهذيبك لخدمتك ، فولَّيناك على الرجاء فيك فصدِّق الظن بك ، وحافظ على أَدنى حظك ، تَنَلْ أَقصاه ، فقلما أَحسن امرؤ فى بَدءِ أَمره إلا حَسُنت عاقبته ، وحُمِدت مَغبتَّه .

وكان أَبو اليُسر الشاعر ، المعروف بالرِّياضىّ (١) ، قد اضطرب بالمشرق فأَعيته وجوهُ مطالب الرِّزق ، فقصد الأَندلس ، وافتعل كتابًا على لسان ابن الشيخ بالشام ، وأَلسنة عامة أَهل بلده ، بكُل ماأَمكنه من الاستدعاء إلى الخلافة ، وذكْر تقارب الدولة ، فلمَّا ورد على الأَمير محمد ، رحمه الله ، فَهم أَنَّه محتال مُتعيِّش شحَّاذ ، فأَمر بتوسيع نُزله ، وأَمضى ذلك له بطول مُكثه ، ثم وصلت له إليه كتب يسأَل الإِذن له ، بعد طُول

---

(١) التكملة (انظر الفهرست) .

مقامه ، استحسنها الأَميرُ واستلطفها ، فأَدخل هاشمًا إلى نفسه ، وقال : ويحك ! هذا إنسان طالب معيشة ، تولدت له بها هذه الحيلة ، فإنْ صِرْنا إلى تصديقه ومُجاوبته ، على حسب كتبه ، اتخذنا عند بنى هاشم مَضْحكةً ومَزْراةً ، وإن كذبناه وحرمناه ، وقد احتل جنابنا ، فلَوْمٌ مشهور ، وفعْل غير مشكور ، وقد رأينا فيما خاطبنا (١) به عن نفسه تأْليفًا حسنًا ، وتَجويدًا بالغًا ، لوكان قَصدنا به عن نفسه ، على نأْى داره ، وبُعد مزاره ، لاستحق معروفنا ، واستوجب إحساننا ، ثم أَمر له بخمسمائة دينار وازنةً (٢) ، وبكتاب ليس فيه غير : بسم الله الرحمن الرحيم .

فأَخبرنا محمدُ بن وليد الفقيه ، قال : خَرج من قُرطبة ، وخرجنا معه نريد المشرق ، فجمعنا الطريقُ ، فإذا أَحسنُ الناس أَدبًا ، وأَكثرهم تصرفًا ، فلما صِرْنا بالعُدوة أَخبرنا خَبره وأَمْره ، ثم فض الكتاب بين أَيدينا ، فإذا ليس فيه غير : بسم الله الرحمن الرحيم ، فجَعل يُكثر التعجب من ذكاء الأَمير محمد ، ويقول : هكذا أَعرف بنى أُمية ، لم يكن ليُلاَم ولم يكن ليُخدع .

فلما صار الرياضى ، إلى مصر وَقَع صاحبُها على خبره ، فأَمر بِحَبسه .

قال محمد بن وليد : فاتّصل بنا خبرُه ، ووجب علينا فى رعاية الصُّحبة زيارته وتأْنيسُه ، فلما انصرفت ، وثلاثة معى من أَهل الأَندلس ، من صلاة الظهر يوم الجمعة ذهبنا إلى صلته وقَصْده بمكانه ، فسأَلنا عن الحبس فهُدينا إليه ، فلمّا وقفنا بالباب كَشفنا عنه ، فوُصف لنا

---

(١) الأصل : « خاطبناه » .

(٢) وازنة : وافية . .

موضعُه ، فدخلنا إليه ندعو له ، فقال لنا : هل حُبستم معى ؟ قلنا له : ولم ذلك ؟ قال : مَن دخل الحَبس لم يَخْرُج عنه إلا برأى السلطان ، فَظَنَناه مازحًا ، ثم أَقلقنا ذلك ، وذَهبنا لنخرج ، فدَفع البوابون فى صُدورنا ، فإذا نحن أعظمُ الناس داهيةً وأَجلِّهم بليَّة ، لايعرفنا أَحد ولا نعرف أَحدًا ، فلبثنا بذلك مِن حالنا ، حتى رفعنا أَمرنا إلى المُزنى الفقيه، وذكرنا له مذهبنا فى الخَير ، وقَصدنا إليه فى طلب العلم ، فتردَّد على صاحب مصر فى أَمرنا ، حتى يَسَّر الله إطلاقنا .

وكَتب إلى الأَمير محمدِ الوليدُ بن عبد الرحمن بن غانم : عَظُمت نِعْمة الأَمير ، أَبقاه الله ، عن الشُّكر ، وجلَّت أَياديه عن النشر ، فمتى رمت شَكر أَدنى ماغَمرنى ، وحَمْدَ أَيسر مااشتمل على تكاءَ دنى (١) الشكر ، وعَجز بى الجهد ، ولست بمؤمل مع ذلك عن الاستفراغ فى القول ، والاجتهاد فى العمل ، إذ لم أَرهما يَدوران إلا على نعمة أُزلفت ، ويقتصران إلاَّ على زيادة انتُظرت ، وأَنا بينهما مُخيم ، وعليهما معوِّل ، والله الناقل لعباده بطاعتهم له ، وشكرهم إياه ، من دار الشقوة إلى دار السعادة ، ومن نَصب العاجلة إلى راحة الآجلة .

فكتب إليه : إن الله شاكر يُحب الشاكرين ، وقد ناديت فأَسمعت ، ولكل أَجل كتاب .

ثم استوزره إلى أَيام .

ووَلِى المُلْك يوم الخميس لثلاث خَلَوْن من شهر ربيع الآخر ، سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، فملك أربعًا وثلاثين سنة ، وتوفى فى يوم الجُمعة

---

(١) تكاءده الأمر : شق عليه . وفى الأصل : « تكاأد » .

لمستهل ربيع الأول من سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، وهو ابن سبع وستين سنةً (١) .

(ولاية المنذر بن محمد)

وكان الأمير المُنذر بن محمد غائبًا يومًا بكُورة ريّة ، فى الغزاة التى كان أغزاه إياها الأمير محمد ، فوقع عليه الخبر بوفاة أبيه ، فأغذَّ السَّيْرَ ، وطَوى المَراحل ، حتى دخل قُرطبة يوم الأحد لثلاث خلون من شهر ربيع الأول ، فأدرك جِنازة أبيه ، وصلى مع الوزراء يومئذ عليه ، وهاشم يُعْوِل إعوال مَن غلبه الجزع ، واشتد عليه التفجع . فقال متمثلا بقول أبى نواس(٢) :

أُعَزِّى يامحمدُ عنك نفسى ... مَعاذ الله والأيدى (٣) الجِسَام
فهلا مات قوم لم يموتُوا ... ودُوفع عنك لى كأْس(٤) الحِمام

فاضْطغن ذلك منذرٌ عليه ، وظن أنه يعنيه ، فصار مِن حَبسه وقَتَله ، إلى مايطول ذكره ، مما وقع فى غير هذا الموضع .

ثم لم يلبث المُنذر بن محمد إلا سنتين ، لم يُدرك فيهما ، لِقصر مدته ، وتقلص أيامه ، رَتْقَ ماكان انفتق من المُلك ، مع عَزم كان منه فى ذلك وجِدّ ، حتى نزل به الموت ، وهو على بُبَشْتر محاصرًا لها ، يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين ، وهو ابن ست وأربعين سنة .

---

(١) البيان المغرب (٢ : ٩٦).
(٢) هذا الشعر قاله أبو نواس فى وفاة الخليفة العباسى محمد الأمين.
(٣) ديوان أبى نواس (ص : ٥٧٨) : « والمنن ».
(٤) الديوان : « أجل ».

(ولاية عبد الله بن محمد)

ثم ولى الأَميرُ عبد الله يوم السبت ، يوم مَهلك أخيه ، وكان قد سئِم الناس من طُول المُقام، فما هو إلا أن عَلموا بوفاة المُنذر،فخرجت(١) حُشود الكُور ، ووُفود القبائل ، وانصدعوا فى كل وجهة كانوا بها ،فأمر بضَبطهم، فلم يُلْفِ أَحدًا (٢) يَضْبِط ، فانتقل خائفًا على نفسه من عدّوه ، وقدم أخاه المُنذر بين يديه ، وكان أُشير عليه بدفنه فأَنف من ذلك ، حتى قَدِم به قُرطبة فدفنه مع آبائه فى القصر .

ثم إن الأُمور تفاقمت فى ولايته . وتفاوتت بعد قُرب تداركها ، فتفرقت أَجنادُه، وعجز عن نصره قُوادُه والتزم التقوى ،وإظهار النسك وتوفير مافى يده من أَموال المسلمين ، حياطةً عليها ، ونظرًا لهم فيها ،وهُلك الجبايات ، باشتداد شوكة الثوار عليه بكُل ناحية ، فوفَّر (٣) أَعطيات الأَجناد ،وضيق على من بقى معه منهم ، واستولى الفساد فى كل وجه ، وآل أَمر ابن حَفصون إلى ما آل إليه ، مما قد شُهر ودُوِّن ، حتى ضُبط عليه حصن بُلَاى ، وهو على مرحلة من قُرطبة ، وانبسطت خيلُ ابن حفصون فيما حواليه ، فكانت تُصابحه كل يوم غادية ورائحة . على أَعلام شَقُنْدة ، وفجّ المائدة ، ولايَدفعها دافع .

وبلغ الأَمرُ أَن تقدَّم فارس من شُجعان أَصحابه ، وقد ضَرب ابن حَفصون وخيله ، على الفج المُطِل على قُرطبة ، فاقتحم القنطرة ، ودفع رمحه فأَصاب الصورة التى على باب القنطرة ، ثم كَر راجعًا إلى أَصحابه.

---

(١) الأصل : وخرقت » . ولعلها محرفة عما أثبتنا .

(٢) الأصل : « أحد » .

(٣) كذا . والمسموح « أوفر » ، أى زاد وأضعف.

وتمادى هذا البلاء خمسة وعشرين سنة ، وكانت الأُمور قد التأَمت بعض الالتئام فى آخر أيامه ، بقائده أَبى العباس أَحمد بن محمد بن أَبى عَبدة ، فله على ابن حفصون وغيره من الثُّوّار ، وقائع مشهورة ، انتصف فيها وأَربى عليهم ، وأَخرج ابن حفصون من حِصن بُلاى ، وجبى بعض نواحى الشرق ، وصالح قومًا آخرين على بعثة أَموال ضُربت عليهم ، مع إقرارهم فى مواضعهم .

ولعبد الله الأَمير توقيعات بليغة ، وأَشعار بديعة فى الغَزل والزُّهد ، لايكاد أَن يقع مثلها ، أَوَ ينتسب إلى مَن تقدمه ، نظيرُها .

كتب إلى أَحمد بن محمد القائد فى يوم عيد : أَمَّا بعد ، فالتزم التوكل على الله ، تبارك وتعالى ، والثقة به فى جميع أُمورك ، وما أَنت بسبيله من ثغرك ، فإنهما حِرْز من كل ضُر يُتَّقى ، وبلاغ لكل خير يُرتجى ، وكن من التحفظ فى أيام عيدك على أَحسن الذى يجب عليك الأَخذ به والتحفظ فيه ، والله خير حافظًا ، وهو أَرحم الراحمين .

وأَملى كتابًا إلى بعض عُماله : أَما بعد ، فلو كان نَظرك فيما عَصبناه بك ، واهتبالك (١) على حسب مؤاثرتك بكُتبك ، واشتغالك بذلك على مهم أَمرك ، لكنت من أَحسن رجالنا غناءً ، وأَبلغهم نظرًا ، وأَفضلهم حزمًا ، فأَقلل من الكتاب فيما لاوَجه له ولانفع فيه ، واصرف همتك وفكرتك وعنايتك إلى مايبدو به اكتفاؤك ، ويظهر فيه عناؤك ، إن شاء الله ، والسلام .

---

(١) اهتبالك : اغتنامك .

وله فى الغَزَل :

وَيْلى على شادنٍ كَحيل   فى مثله يُخْلَع العِذارُ
كأنما وَجْنتاه وَرْدٌ   خالَطه النَّوْر والبَهارُ
قَضيب بانٍ إذا تَثَنى   يُدير طَرْفًا به احْوِرَارُ
فصَفْوُ وُدِّى عليه وَقْفٌ   ما اطَّرد الليلُ والنَّهارُ

وله فى الزُّهد :

يامن يُراوضه الأَجَلْ   حتَّام يُلهيك الأَمَلْ
حتَّام لاتَخْشى الرَّدَى   وكأَنه بِك قد نَزَلْ
أَغَفَلْتَ عن طَلب النَّجَا   ةِ ولانَجَاةَ لمن غَفَلْ
هَيهات تَشْغلك المُنىَ   ولَمَا يَدُوم بك الشُّغُلْ
فكأَنَّ يَومك لم يَكُنْ   وكأَنَّ نَعْيك لم يَزَلْ

(ولاية عبد الرحمن بن محمد)

وأَما عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأَمير ، فإنه ولى الخلافة والفتنةُ قد طبَّقت آفاق الأَندلس ، والخلاف فاشٍ فى كل ناحية منها ، فاستقبل المُلك بِسَعْد ، لم يُقابِل به أَحداً مِمَّن خالفه أَو خرج عليه إلا غلبه واستولى على مافى يديه .

فافتتح الأَندلس مدينةً ، وقتل حُماتها ، واستذل رجالها ، وهدم معاقلها ، وضرب المغارم الثقيلة على من استَبقى من أَهلها ، وأَذلهم بعَسْف العمَّال غاية الإذلال ، حتى دانت له البلاد ، وانقاد له أَهل العِناد ، فمات ابن حَفصون فى حِصاره ، وقُتل سليمان ابنَهُ محاربًا ، واستنزل سائر بنيه وأَهله وأَمَّنهم ، وصاروا فى جنده ، وملك بُبَشْتَر وبناها وحصَّنها وهدم كل حصن غيرها .

وذكر أنه إنما استبقاها عُدَّة لنفسه ولولده ليلجُوا إليها ، لما كانوا يُحدِّثون فى الآثار من أن فِتَنًا تهيج فى الأَندلس بخوارج يَخرجون على أهلها ، يُخرِّبون البلاد ، ويَقتلون الرِّجال ، ويَسْبُون النِّساءَ والوِلدان ، حتى يَعُم الفساد جميع أَقطارها ، فلا يبقى فيها إلا من اعتصم بالمَعاقل ، أَو لجأَ إلى البُحور ، وهو عندهم الفسادُ المُتَّصل بالبلاءِ الأَعظم الذى لاصَلاح بعده ، ولابقاءَ معه .

والله أَعلم وهو المستعان .

واتَّصل مُلك عبد الرحمن خمسين سنة ، فى عزٍّ مَنيع ، وسلطان قاهر ، وافتتاح للبلدان شرقًا وغربًا ،مع غزو العدو والغلبة عليه (١) ، وانتساف بلده وهَدم حُصونه ، والاستبلاغ (٢) فيه ، لايَلقى ذُلاًّ ، ولايَرى فى شئ من أُموره نَقْصًا .

وتناهى ذلك السعدُ حتى فتح الله له ماوراءَ البحر من المُدن الجليلة ، والمعاقل المنيعة ، كسَبْتة ، وطَنجة ، وغيرهما (٣) ، ودان له أَهلُها ، فاستعمل عليها القُواد ، وحصَّنها بالرِّجال ، وأَمدَّهم بالجيوش الكثيفة فى الأَساطيل حتى وَطِئت بلادَ البربر ، واستذلَت ملوكَها ، فصاروا بين مُنْقبع (٤) محصور ، ومُذعن مُنيب ، وشارد هارب ، ومالت إليه الأَهواء ، وسمت نحوه الهِمَمُ ، فضَافَره على حربه ، وتَجرَّد فى نصره ، من كان مُسْتَنْفَرًا (٥) فى قتاله من شِيعة أَعدائه ، فَنَكص عن (٦) موالاته ، واستهلك فى مَرضاته .

(١) الأصل : « له » . (٢) كذا . ولعلها : الاستيلاغ ، بمثناة تحتية . والاستيلاغ : عدم المبالاة . (٣) الأصل : « وغيرها » .

(٤) الأصل : « منتقبع » بمثناة فوقية ، وهى غير واردة .

(٥) الأصل : « مستبصراً » . ويبدو أنها محرفة عما أثبتنا .

(٦) الأصل : « على » .

واستحكم من أَمره ما لو اتصل عَزْمُه فيه ، وتـأْييد الله عليه ، لغلب على المشرق فضلاً عن المغرب ، ولكنه — عفا الله عنه — مال إلى اللَّهو ، واستولى عليه العُجْبُ ، فولَّى للهوى لا للعناء (١) ، واستمد بغير الكُفاة ، وأَغاظ الأَحرار فى إقامة الأَنذال ، كنَجدة الحِيرى ، وأَصحابه الأَوغاد ، فقلَّده عسكره ، وفَوّض إليه جليلَ أُموره ، وأَلجأَ أَكابر الأَجناد ، ووُجوهَ القواد والوزراء ، من العرب وغيرهم ، إلى الخُضوع له ، والوقوف عند أَمره ونَهيه .

وحالُ نَجدة حالُ مثله فى غيه واستخفافه ، وركاكة عقله ، فتواطأَ أَهلُ الحِفاظ من رجاله ، ووجوه أَجناده ، على ما كان من انهزامهم فى الغَزوة التى غزاها عام ستة وعشرين وثلثمائة ، وسمَّاها غزاة القُدرة ، لاحتفاله فيها ، وعظِم مشهدها ، فهُزم فيها أَقبح هزيمة ، وأَتبعهم العدوُّ أَيامًا ، يأسرونهم ويقتلونهم فى كل محلَّة ، فلم يَكَد ينجو منهم إلا قوم جَمعوا أَصحابهم على أَلْوِيتهم ، وتخلَّصوا إلى بُلدانهم .

فلم تكن له بعدها غزوةٌ بنفسه ، وخلا بلذَّاته ومَبانيه ، فبلغ فى ذلك مبلغًا لم يبلغه أَحد ممن تقدَّمه أَو تأَخر بعده ، وأَخباره فى ذلك أَشهرُ من أَن تُوصف .

واجتمع فى دولته عِلْيَة الرِّجال ، وسَرَوات الكتّاب ، خَدَمةً لم يَخدم الملوكَ مثلهم ، فى فضل آدابهم ، واتساع أَفهامهم ، مع المرؤة الطاهرة ، والسِّيرة الجميلة ، كمُوسى بن حُدَير الحاجب ، وعبد الحميد بن بَسيل ،

---

(١) الأصل : « لا للغناء » ، بالغين المعجمة .

وعبد الملك بن جَهْور ، وإسماعيل بن بدر ، وابن أَبي عيسى القاضى ، ومُنذر بن سعيد ، كان واحد عصره فى العلم والأَدب وحُسن الخطاب .

وكان عيسى بن فُطيس ، كاتبه ، أَبلغَ الناس إذا كَتب .

إلى كثير منهم لايَتَّسع التأْليف لذكرهم ، ووصف محاسنهم ، عفا الله عنَّا وعنهم ، ورحمنا وإياهم .

فمن كُتب عبد الرحمن أَمير المؤمنين الناصر كتابُه إلى أَحمد بن إسحاق القُرشى ، إذ سخط عليه ، وهو يحارب محمد بن هاشم التُّجيبىّ بسَرَقُسْطة ، وهو من كُتبه التى انفرد بها :

أَما بعد فإنا كنا نرى الاستحماد (١) إليك استصلاحًا لك ، فأَبى الطَّبع الغريزى إلا مااستحكم منه فيك ..... (٢) إلا أَن استحوذ عليك فالفَقر يُصلحك ، والغنى(٣) يُطغيك ، إذ لم تكن عرفته ولاتعوَّدته ، أَو ليس كان أَبوك فارسًا من فرسان ابن حجَّاج ، أَخسَّهم حالاً عنده ، وأَنت يومئذ نخَّاس الحمير بإشبيلية ، فأَقبلتم إلينا ، فآويناكم ونصرناكم ، وشرَّفناك وموَّلناك ، واستوزرنا أَباك ، وقلدناك أَعنَّة الخيل أَجمع ، وفوضنا إليك أَمر ثَغرنا الأَعظم ، فتهاونت بالتَّنفيذ لنا وقلِّة المُبالاة بنا ، ثم مع هذا : الترشُّحُ للخلافة ، فبأَى حَسب أَو أَى نَسب ! وفيكم قال القائل :

---

(١) استحمد إلى الناس بإحسانه إليهم : استوجب عليهم حمدهم له .

(٢) بياض بالأَصل . (٣) الأَصل : « والغناء » .

أنتم خشار الخُشَارِ وليس خَزٌّ كخَيْش (١)
إنْ كنتم من قُرَيْشٍ تَزَوَّجوا فى قُرَيْشِ
أو كنتمُ قِبْطَ مِصْرٍ فذا التَّعاطِى لأَيْشِ(٢)

أَليست كانت أُمك حَمدونة الساحرة ، وأبوك المَجذوم ، وجدُّك بوّاب حوثرة بن عبَّاس ، يَفْتُل الحبال فى أُسطوانة ، ويَخيط الحَلْفاءَ على باب داره ، فَلعنك الله ولَعن من أَنشبنا فى الاستخدام بك ، فيامَأبون ويامَجذوم ، ويابن الكلب والكلبة ، أَقْبِلْ صاغرا .

ومما خاطب به عبدُ الملك بنُ جهور عبدَ الرحمن الناصر لدين الله من اسْتجَة ، وهو حينئذ وَلَد ، وجعل عنوان كتابه : لأَبى المطرِّف سيدى ، من عَبده المتعبد .

وتحت العنوان :

دامت لك النُّعْمَى وإن رَغِمَت أُنوفُ الحُسَّدِ
وَوَقَتْك نَفْسِى كُلَّ مَحْذُورٍ يَروح ويَغْتَدِى
وعَلَوْتَ حتى لايُقالُ لِقَدْرك العالى ازْدَدِ
إنى كتبتُ وحَرُّ شَوْقى يَسْتميح تَجَلُّدِى
ودُموعُ عينى تَنْهَمِي(٣) فتُحِيل ماكَتَبتْ يَدِى
لتِغَرُّبى وتَوَحُّشِى وتفَرُّدى وتوحُّدِى
مَن ذاق طَعم البَيْنِ ذاقَ الموتَ غير مُصَرَّدِ
ورأى المنيَّة جَهرةً فى مَصْدَرٍ أو مَوْرِدِ
إن أَذْكر (٤) الأُنْس الذى ولَّى وطِيبَ المَشْهَدِ

---

(١) الخشار : الفضلة والبقية . (٢) التعاطى : التطاول .
(٣) المسموع : هما يهمى . (٤) الأصل : « انذكر » .

وكَريم بِشْرِك لى ووَجْـ   هك حين يُشرق فى النَّدِى
فأَعِى من الحَسَرات أَلْـ   وانًا تُطيل تبلُّدِى
فاسْلَم وعِش وابْلُغ مـدَا   ك ودَعْ حَسُودك يَكْمُدِ
وارْحَمْه أن نِلْتَ العُـلاَ   وجَرَى بجَدٍّ أنْكَـدِ
ثُم السَّلام عليك مـِ   نِّى دائمًـا يا سيِّدى

ومن جَيد قول عبد الملك بن جَهور فى النَّرجس :

قد بَعثنا إليك بالنَّرجس الغ   ضّ حكَى لونَ عاشقٍ مَعْمُودِ
فيه ريحُ الحَبيب عند التَّلاقى   واصفرار المُحب عند الصُّدود

وله فى زوجته ، وكان كارهًا لأَخلاقها ، وله معها أَخبار عجيبة ، ثم صار إلى مُفارقتها :

مَن ذا يفكّ إسـارِيَهْ   ويَحُلُّ عَقْدَ عِقاليَـهْ
مَن ذا يُخلِّص مِن هَـوًى   مَن حَيْنُه فى الهـاوِيَهْ
إنِّى بُليت بشرٍّ مَن   تَحت السماء العاليـهْ
إنِّى دُهيت بحَيَّـة   قَطعت حَرَاكَ لِسانيـهْ
لو كنتَ تُبصرها سأَلْـ   ـت اللهَ منها العافيـهْ
ما أَبصرتْهـا مُقْلتى   مُذْ أَبصرتْهـا راضيـهْ
تَمضى السِّنونَ وتَنْقضى   وحياتُهـا مُتمـاديـهْ
ولهـا أُهَيلٌ مُنْـتِنٌ   عُور الوُجـوه سواسـيهْ
لولا الحَيـاء بَصقتُ فى   تلك الوجُـوه الباليـهْ
يـا يومَ مَعْـرفتى بِهـم   يا زانى ابن الزانيـهْ

أَنْشَبْتَنِى وغَرَرْتَنِى وقَعَدت عنِّى ناحيهْ
ماكان هذا منك فى الـ ـوُدّ القديم جَزائيهْ

ومما خاطب به إسماعيلُ بنُ بدر الكاتب عبدَ الرحمن بن محمد الناصر :

عَدِمْتُ البَيْن أَرَّق طَرْف عَينى وفَرَّق بين مَن أهوى وبَيْنى
لقد نام القَعيدُ قريرَ عَيْنٍ بمن يَهوى وبتُّ سَخِينَ عَيْنِ
إذا وَجْه الصَّباح بدا تهادتْ ركائبُنا لأَيْنٍ بَعد أَيْنِ
فَقَلبى نازحٌ عنىٍّ غريبٌ وجِسْمِى دُونه فى غُرْبَتَيْنِ
أَجُوب القَفْرَ بعد القَفرِ أَبْغِى لِذاك رِضَا إمام المَغْرِبَيْنِ
ومَن لايَبتغى دَعَةً إلى أَن يكونَ خليفةً بالمَشْرِقَيْنِ
لقد حَلَّت حُمَيًا الرَّاح عِنْدِى وطابَتْ بعد فَتْحِكَ مَعْقِلَيْنِ
وآذنَ كُلُّ هَمٍّ بانفِراجٍ وأَنْ يَقْضِى غريمُك كُلَّ دَيْنِ
وهذا البَحْرُ يَذْكُر منك عَهْدًا سَقى مَغْناه نَوْءَ المرْزَمَيْنِ(١)
تَحِنّ إليك منه طامِيَاتٌ مِن الأَمواج مِلْءِ الخافِقَيْنِ
لئن جاشَتْ غواربُها بماءٍ أُجَاجٍ لايَسُوغ لوارِدَيْنِ
فأَنت البَحْرُ عَذْبًا مُستهلاً عَلينا بالنُّضار وباللُّجَيْنِ
فعِشْ فى غِبْطَة وسُرورِ مُلْك تَدُوم له دوامَ الفَرْقَدَيْنِ

أما قوله :

لقد حَلَّت حُمَيًّا الرَاح عندى وآذن كُلُ هَمٍّ بانفراج

فإن أمير المؤمنين عبد الرحمن لمَّا غزا غزاته الثانية آلى ألا يأنس

(١) المرزمان : نجمان ، وهما الشعريان : العبور والغميصاء .

بمنادمة حتى يَفْتتح مَعْقِلاً ، فافتتح مَعقلين من معاقل ابن حَفصون ، فكَتب إليه بهذا الشعر .

وكان عبد الرحمن أَمير المؤمنين قد كَتب سِحَاءَة (١) مُقرَّطة ، من قطعة زجاج من الزجاج الذى يفزوا به (٢) ارأْس إسماعيل ، فكتب إليه :

قد كُنْتَ أَوجبت فى الزُّجَاجِ للرَّأْس منِّى بلا اخْتِلاَجِ
كَبيرة أُتْرِعَتْ رَحِيقًا صِرْفًا أَبَت ذِلَّة المِزَاجِ
فلم أَزل بعدُ ذا رَجاءٍ لها فَهل تأذننّ (٣) لراجِى
يامالكًا رَأْيُه ضياءٌ فى كُل خَطْبٍ أَلَمَّ دَاجِى
كأَنَّما الفَجْرُ مِن سَنَاه فى غَسَق اللَّيْل ذو ابْتِلاجِ
بَحْر من الجُود فاض عَذْبًا طَمّ على الأَبْحُر الأُجَاجِ
مَنْ لى بِيَوْمٍ به قِرَاعٌ ليس أَخُو كَرْبه بِناجِى
بكُل بَيضاءَ مَن رآها يَحسبها شُعْلَةَ السِّراجِ
لا تَنْسَ مولاه فى وَغَاهُ واذْكُره فى حَوْمة الهِيَاجِ

فكتب إليه أَمير المؤمنين :

كيف وإنى لمن يُناجِى مِن لَوْعة الشَّوق ما أُناجِى
يَطمع أَن يَستريحَ وَقْتًا أَو يَقْتل الراحَ بالمِزَاجِ
كنتَ كما قد عَلِمْتَ أَلْهو إذ أَنا ممَّا شَكَوْتُ ناجِى

---

(١) السحاءة : القشرة من كل شيء .
(٢) كذا . (٣) الأصل : « تأوين » .

فصِرْت للبَيْنِ فى عِــلاَجٍ ... طَمّ وأَرْبى على العِــلاَجِ

الوَرْدُ مِمَّا يَزيد حُزْنى ... ويَبعث السَّوْسَنُ اهْتِياجِى

أَرى ليالىَّ بعد حُسْنٍ ... أَقْبَحَ من أَوْجُهٍ سِمَــاجِ

لاتَرُج مِمَّا أَردتَ شيئًا ... أَو يُؤْذِن الهَمّ بانْفِــراجِ

وله فى عبد الرحمن أَمير المؤمنين ، رحمه الله تعالى :

لَطُفت أَناملُه بعَقْرَب صُدْغِه ... عَمَدًا لِيَلْدَغَ فى فُؤاد العاشقِ

وكأَنَّ شاربه هلالٌ طالعٌ ... قد خَطَّه بالمِسْك أَحذَقُ حاذِقِ

وكأَنَّما بِجَبينه شمسُ الضُّحَى ... قد قُنِّعت بِظَلامٍ ليلٍ غاسِقِ

وكأَنَّ وَجنته أَزاهرُ رَوْضَةٍ ... يَبْأَى(١) بها السُّوسان فوق شَقائِقِ

فإِذا تلفَّت قلتَ صورةُ دُمْيَةٍ ... وإِذا تَبسَّم قُلت خَطْفة بارِقِ

ياغايةَ الحُسن الذى هو غايتى ... كيف احْتِمالى فى فُؤادٍ خافِقِ

حَكم الإِلهُ بما تَراه فما أَرى ... مِن حِيلَةٍ فى دَفْع حُكْم الخَالِقِ

قُلْ لِلخَليفة مِن أُميَّة والذى ... مادُون فَيْض نَواله مِن عائِقِ

أَنْسَيْتَ من مَنصورها ورَشيدها ... وفَضَحْتَ من مَهديِّها والواثِقِ

وحَكَيْت عن عبد المليك وهَدْيه ... سيما الخَليفة والإِمام الباسِقِ

أَأَصوغ(٢) بعدَ مواثقٍ لك جَمَّة ... فيما مَضى أَكَّدتها بمَواثِقِ

---

(١) يبأى : يفخر . والسوسان ، أى : السوسن . والشقائق : شقائق النعمان ، وهى نبات أحمر الزهر فيه نقط سود .

(٢) الأصل : « أأصبع » .

تم ماجمع فى هذا التأليف من أخبار فتح الأندلس وأمرائها .

والحمد لله حق حمده ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه وعبده .

فهـــارس الكتـــاب

وتنتظم :

— ١ —

فهرست الأعلام

(١) جاء فى (ص : ٣٢) باسم : هشام ، تحريف .

---

(١) ورد فى بعض المواضع باسم : يوسف بن عقبة .

— ٢ —

فهرست القبائل

---

(١) جاءت كلمة (اليمن) مرادا بها اليمانيون فى الأكثر من هذا الكتاب ، ولها وجه ، إذ يقال إن العرب لما تفرقت نزلت بنو يمن تلك الأرض فسميت بهم . (معجم البلدان : يمن) .

— ٣ —

فهرست الأماكن

— ٤ —

فهرست الأيام

— ٥ —

فهرست الشعراء

— ٦ —

فهرست القوافى

— ٧ —

مراجع الكتاب

البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى .
تاريخ ابن خلدون .
التكملة لابن الأبار .
الحلة السيراء لابن الأبار .
ديوان أبى نواس .
السيرة لابن هشام .
صفة جزيرة الأندلس للحميرى .
معجم البلدان لياقوت .
المعرب للجواليقى .
نفح الطيب للمقرى .
وفيات الأعيان لابن خلكان .